

مشكلات الطبقة الوسطى المصرية في
قصص نجيب محفوظ من القاهرة الجديدة حتى الثلاثية

اعداد
عاطف فضول

رسالة مقدمة الى الدائرة المربية
في الجامعة الاميركية ببيروت
للحصول على درجة الماجستير في الآداب

حزيران ١٩٧٠

T
199A

~~March 8, 1969~~

NOTICE TO GRADUATE STUDENTS

The Board of Graduate Studies in its meeting on November 1, 1968, decided that all graduate students must include the following " Thesis Release Form " to appear on a seperate page of each thesis:

" THESIS RELEASE FORM "
American University of Beirut

I, Atif Faddul :



authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals upon request.



do not authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals.

Atif Faddul
Signature

June 1, 1970 "
Date

Emile Rubeiz
Emile Rubeiz
Assistant Registrar

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Title:

مشكلات الطبقة الوسطى المصرية في عصر نجيب محفوظ من القاهرة الجديدة حتى الثلاثية
The Problems of the Egyptian Middle Class as depicted in
the works of Nagib Mahfous, from al-Qahira al-Jadida to
the Trilogy

By

Atif Faddul
(Name of Student)

Approved:

Prof. M.Y. Najm

4/5
Advisor

Prof. I. Abbas

Jihan Alh...
Member of Committee

Prof. H. Barakat

Haim Barakat
Member of Committee

Prof. M.A. Ghul

M. A. Ghul
Member of Committee

Prof. N. Naimy

Date of Thesis Presentation: 19/5/1970

مقدمة

* تدخل هذه الدراسة ضمن محاولات تفسير الأدب تفسيراً اجتماعياً ، وهي المحاولات التي تطورت مع تطور علم الاجتماع ، وصار لها اتباع ومدارس ، ولُتُبِتت بالتالي وجودها الى جانب سائر المحاولات النقدية التي تنظر الى الأدب من زوايا مختلفة كالزاوية النفسية ، والزاوية التاريخية ، والزاوية الفنية البحتة^١ . وتؤكد النظرية الاجتماعية الخاصة بنشأة القصة ارتباط هذه النشأة بنمو الطبقة الوسطى وازدهارها ، كما تؤكد التصاق القصة بواقع الحياة^٢ . لذلك فان محاولة ابراز علاقة قصص محفوظ بالطبقة الوسطى المصرية ، ومعالجتها لمشكلاتها لها ما يبررها من الناحية النظرية على الأقل . وهذه هي النقطة الاولى التي تركز عليها هذه الدراسة .

١ . يقول هامفري هاوس (Humphry House) في كتابه

The Dickens World (2nd. Ed.; London: Oxford University Press, 1965)

15.

ان النقد الادبي وبشكل خاص ما يسمى بالتاريخ الادبي صار^٣ اجتماعياً بصورة اكبر ، وان من الحقائق البديهية التي لم يشك بها ناقد ابدا ان الكاتب العظيم هو ثمرة القوى الاجتماعية في زمنه ، وانه يعكس هذه القوى ويعديلها في اعماله .

٢ . راجع

Diana Spearman, The Novel and Society (London: Routledge and Kegan Paul, 1966).

حيث تورد المؤلفة سائر النظريات الخاصة بنشأة القصة ، كما تورد التعريفات المختلفة للقصة . وكلها تؤكد ارتباط القصة بالحياة الواقعية وبالطبقة الوسطى . ومع ان الكاتبة تدعو الى تعديل النظرية الاجتماعية الخاصة بنشأة القصة ، فان هذا التعديل ليس الا تعديلاً جزئياً يأخذ باعتباره العوامل التاريخية المتشعبة في أثر الأدب القصصي السابق للقرن الثامن عشر في القصة الحديثة من ناحيتي الشكل والمضمون ، ولا يلغي النظرية ككل .

==

أما النقطة الثانية فتنتقل من تأكيد محفوظ في المقابلات التي أجريت معه على أن الكاتب لا يمكن أن يكتب إلا عن تلك المجموعة من المجتمع التي ينتسب إليها "فانفعالاته انعكاس لانفعالاتهم وتجاربهم صورة من تجاربهم وهم منه وهو منهم ولذلك يكتب عنهم!"^١ والمجموعة التي ينتسب محفوظ إليها هي الطبقة الوسطى الصغيرة. وتؤكد ذلك أن الشكل الواقعي ينبع تاريخيا من رغبة محددة فسي دراسة المجتمع والأنسان، وأن سلسلة كتبه قبل الثورة كانت محاولات لتحليل المجتمع القديم ونقده^٢. وهكذا يؤكد محفوظ بشكل حاسم أن قصصه الواقعية تحلل مجتمع ما قبل الثورة وبشكل أدق مشكلات الطبقة الوسطى المصرية في ذلك المجتمع.

== كذلك يؤكد هاربي لافين (Harry Levin) في كتابه The Gates of Horn. A study of Five French Realists (New York: Oxford University Press, 1963), P. 4 and P. 32.

ان القصص الواقعي كان ولا يزال تعبيراً مميزاً عن المجتمع البرجواني، وان هذا الأمر يمكن قبوله الآن كحقيقة مقررة، وان تحليل القصص يجب ان يعتمد على الاسناد المستمر الى العصر البرجواني، والى التركيب الاجتماعي لمجتمع الكاتب، وان الملحمة والرومانس والقصة تمثل ثلاث طبقات اجتماعية واساليب حياة متتالية: العسكرية، والبلاطية، والتجارية.

ويؤكد حليم بركات في مقالة بعنوان "في علاقة القصة بالمجتمع"، التي نشرت في مجلة آفاق خريف ١٩٥٨، ص ٥٢-٥٨ ان القصة اكثر انواع الادب التصاقاً بواقع الحياة. ويعرض النظريات الخاصة بارتباط القصة بالمجتمع ويقسمها الى نوعين: النظرية الانعكاسية والنظرية التأثيرية.

١. هـد التواب عبد الحي، "عصر حياتي"، الاذاعة، ٢١ كانون اول، ١٩٥٢، ص ٢٠. كذلك صرح محفوظ لكاتب هذه الدراسة بأنه يوافق على أن قصصه الواقعية تعالج مشكلات الطبقة الوسطى المصرية — مقابلة أجريت في القاهرة في ٧ نيسان ١٩٦٩.

٢. كمال الجويلي، "الادب والفلسفة"، السياح، ٢١ تشرين اول، ١٩٦٢، ص ٨.

وتقوم طريقة البحث المتبعة في هذه الدراسة على استنتاج الحقائق من إشارات الكاتب، ومن تصرفات شخصيات قصصه وأقوالهم، ومقارنة الأقوال والتصرفات، وتصنيفها، واستخراج المبادئ العامة منها. وتسهيلا للبحث لجأت الى تقسيم المشكلات الى انواع ثلاثة: اجتماعية، واقتصادية، وسياسية مع اقتناعي بالارتباط الشديد بين هذه الانواع من المشكلات. لذلك حرصت على تأكيد ذلك الارتباط والاشارة اليه خلال البحث، وبدأت بالكلام على المشكلات الاجتماعية لاعتقادي أنها أهم هذه المشكلات، ثم أتبعتها بالمشكلات الاقتصادية وأخيرا السياسية، حارصا طوال الوقت على أن أترك كلمات محفوظة نفسها تعبر عما أريد اثباته، وتاركا لنفسى مهمة الترتيب والتحليل والاستنتاج. كما قدمت للحديث عن المشكلات بفصل بينت فيه تركيب الطبقة الوسطى المصرية كما يتجلى في قصص محفوظة الواقعية، بعد أن عرضت تطور هذه الطبقة منذ نشأتها وحتى الأربعينات من هذا القرن، والآراء المختلفة في حجمها وتركيبها بالشكل الذي تسمح به الدراسات القليلة في هذا الموضوع، وبتمهيد بينت فيه علاقة محفوظة بالطبقة الوسطى وبقضايا عصره بنيتها على ما عرفته عن الكاتب من المقالات التي أجريت معه، ومن كتاباته، وتاريخ مصر في الفترة التي كتب فيها قصصه موضوع هذه الدراسة.

وكانت المشكلة الأولى التي واجهتني وأنا أحضر لهذه الدراسة هي اعتماد تعريف محدد للطبقة الوسطى يمين الفئات التي تشملها والخصائص التي تتميز بها عن الطبقات الاجتماعية الأخرى، خاصة وأن الدراسات حول الطبقة الوسطى المصرية نادرة جدا، كما أن تعريفات الباحثين الغربيين للطبقة الوسطى شديدة الاختلاف، ولا تنطبق بصورة عامة على مجتمعات البلدان النامية. وقد اعتمدت في الفصل الأول الخاص بتركيب الطبقة الوسطى المصرية في قصص محفوظة تعريف مورو بيرز (Morroe Berger) الذي يشير فيه الى أن الطبقة الوسطى تشمل صغار رجال الصناعة والتجارة، وأصحاب المهن الحرة، وموظفي الحكومة. كما استطعت أن أستنتج من التعريفات المختلفة التي اطلعت عليها أن أهم ما تتميز به الطبقة الوسطى هو وضعها الوسطي القلق على السلم الاجتماعي والذي يجعل أفرادها يسمون، من

جهة، وراء بلوغ درجة أعلى على ذلك السلم، ويخشون، من جهة أخرى، السقوط. الى درجة أدنى. وكان ذلك الاستنتاج متفقا مع ما استخلصته من قصص محفوظ ذاتها وهكذا كان هو الخط الأساسي الذي تركز عليه البحث في الفصول الثلاثة الخاصة بالمشكلات.

أما المشكلة الثانية التي واجهتني فكانت ضالة المادة الخلفية الضرورية لهذه الدراسة بسبب ندرة الدراسات الاجتماعية حول المجتمع المصري بصورة عامة والطبقة الوسطى المصرية بشكل خاص. فحاولت ما أمكنني أن أستجمع تلك المادة من المباحث التاريخية والسياسية والاقتصادية التي كتبت عن مصر، مثل كتاب عبد العظيم رمضان تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٣٦ وهو دراسة تاريخية علمية تحليلية أغتني عن مراجعة كتب التاريخ المصري الحديث الوصفية، وتضمنت تحليلا لحقائق الوضع السياسي في مصر في تلك الفترة، كما أبرزت دور البرجوازية المصرية في الأحداث السياسية، وهما أمران لازمان لهذا البحث. ومثل كتاب راشد البراوي حقيقة الانقلاب الأخير في مصر، وأبحاث الدكتور محمد أنيس المتعلقة بالتاريخ المصري الحديث التي نشرت في مجلة الكاتب عام ١٩٦٥. وقد ساعدني كتاب البراوي وأبحاث أنيس في تحديد تطور الطبقة الوسطى المصرية. ومثل كتابي شارل عيساهي Egypt at Mid-Century و Egypt: An Economic and Social Analysis اللذين وان ركزا على الناحية الاقتصادية، فقد تضمننا بالإضافة الى ذلك تحليلا للأوضاع السياسية والاجتماعية في مصر الحديثة. وكتاب ندف صفران (Nadav Safran) Egypt in Search of Political Community الذي أفادني في نواح مشابهة. كذلك أودت من دراسة بيرغر Bureaucracy and Society in Modern Egypt ومن بحثه حول الطبقة الوسطى في العالم العربي الذي نشر في كتاب بعنوان The Middle East in Transition نشره وولتر لاكير (Walter Laqueur)، وبحث حسن الساعاتي حول الطبقات الوسطى في مصر الذي نشر في مجلة مصر المعاصرة (L'Egypt Con-temporaine) في ابريل ١٩٥٧ باللغة الانكليزية. وبحثا بيرغر والساعاتي ربما

كانا الباحثين الوحيدين اللذين يتطرقان لتركيب الطبقة الوسطى المصرية وحجمها . ويشير اليهما مانفرد هالبرن (Manfred Halpern) في الفصل الخاص بالطبقة الوسطى من كتابه The Politics of Social Change in the Middle East and North Africa ، الذي اتى فيه بنظرية جديدة خاصة بالطبقة الوسطى في البلدان النامية لخصتها في الفصل الاول .

وأفدت بصورة أقل من كتب أخرى مثل الكتاب الذي نشره هولت (P.M. Holt) وعنوانه Political and Social Change in Modern Egypt وفيه بحوث عن التغير الاجتماعي في مصر الحديثة وعن الأحزاب السياسية فيها ، وكتاب كريستينا هاريس حول Nationalism and Revolution in Egypt (Christina Phelps Harris) حركة الإخوان المسلمين . وكتاب وولتر لاكير Communism and Nationalism in the Middle East ، وكتاب جمال محمد أحمد The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism وفيه اشارات الى الأوضاع الفكرية في مصر وتأثيرها بالأوضاع السياسية في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن . وغيرها من الكتب الغربية المتعلقة بمصر وبالشرق الأوسط .

وحاولت أيضا أن أعوض هذا النقص في الدراسات الاجتماعية الخاصة بالمجتمع المصري وبالطبقة الوسطى المصرية بقراءات متعلقة بالطبقة الوسطى بشكل عام او في بلدان معينة . مثل كتاب فرانكلين بالم The Middle Classes- Then and Now (Franklin C. Palm) وفيه دراسات حول أدب الطبقة الوسطى في الغرب وأعلام هذا الأدب: بلزاك (Balzac) وفلوبير (Flaubert) ودكنز (Dickens) وغيرهم وكتاب هنري غريسون The Crisis of the Middle Class (Henry Grayson) الذي يقدم نظرية خاصة بالطبقة الوسطى ، وكتاب إلينور باربر (Elinor Barber) The Bourgeoisie in 18th C. France ، وكتاب فالنتين بل (Valentine T. Bill) The Forgotten Class حول الطبقة الوسطى الروسية . وكتاب غريسون The English Middle Class (R. H. Gretton) ، فضلا عن قراءات سيوسيوولوجية متعلقة بنظم الطبقات في

في المجتمع وبالتفسير السوسيولوجي للأدب، وأبحاث نقدية حول كتاب قصة معينين عالجا قضايا اجتماعية خاصة دكنز وبلزاك وستندال (Stendhal).

ولم ينشر عن أدب محفوظ سوى كتابين هما: المنتقى لغالي شكري، وقضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ لنيل راغب. ولم يفدني كتاب راغب لأنه اقتصر على الناحية الفنية. أما كتاب شكري ففيه محاولة لتحليل مضامين قصص محفوظ الواقعية وعلاقتها بالطبقة الوسطى المصرية الصغيرة. ولكن قارئ هذا الكتاب يشعر أن كاتبه يحاول أن يفرض على قصص محفوظ مضامين مسبقة من عنده^١. وأن يستخدم كلمات وتعابير كسيرة (ملحمة السقوط والانهار، مأساة الخبز والجنس والمعرفة، الضائع، المضطهد، الطريق القصير، الطريق المسدود، جيل المأساة الخ) قد تخدع القارئ العادي وتبهره، ولكنها، في الحقيقة، تفتقر إلى الدقة في أكثر الأحيان بحيث يصير الاعتماد على هذا الكتاب محفوظا بخطر الانزلاق في التعميمات، ورغم أنه لا يخلو من أحكام جزئية صائبة.

وأمكنني الاطلاع على رسالة M. A. قدمت لدائرة الدراسات الشرقية في

الجامعة الأميركية في القاهرة في شباط ١٩٦٩ بعنوان The Novels of Najib

Mahfuz Subsequent to the Trilogy وهي تعالج قصص محفوظ التي كتبها بعد،

الثلاثية، وتقرن بين اتجاه محفوظ فيها واتجاهه في قصصه الواقعية من ناهنستي الشكل والمضمون. وترى كاتبتها ناريمان خالص نائلي الوراق أن الاتجاه الأقوى * في كتابات محفوظ بعد الثلاثية هو تطوره نحو صيرورته كاتب أفكار، وهذا يتماشى مع الاتجاهات العالمية الحديثة في كتابة القصة. وتعطي الكاتبة تفسيراتها لكل من قصص الفترة الأخيرة، وترى أن مراما وهي آخر هذه القصص تختلف عن القصص

١. من الغريب حقا أن شكري نفسه يحذر من فرض مضامين مسبقة على قصص محفوظ

" فلا ينبغي أن (تفرض) على المؤلف مضمونا مسبقا، ونستقرى* النتائج بعد

ذلك من وحي خيالنا لمجرد افتراض لجأنا إليه حين قلبنا الاطار الى محتوى

غالي شكري، أزمة الجنس في القصة العربية (بيروت: دار الآداب، ١٩٦٢)،

ص ١١١، ثم يقع في شرك ما يحذر منه.

الأخرى في هذه الفترة (اولاد حارتنا، اللص والكلاب، السمان والخريف، الطريق، الشحاذ، ثرثرة فوق النيل) في انها عودة الى الواقعية وتخل عن قصة الفكرة، ويقارن الكاتب فيها وضع مصر الحالي بوضعها قبل الثورة.

أما المقالات التي نشرت حول أدب محفوظ في الصحف والمجلات فمعظمها قليل الفائدة. ولا يستثنى من هذا الحكم سوى عدد قليل منها مثل سلسلة مقالات الدكتورة فاطمة موسى التي نشرتها في مجلة الكاتب المصرية عام ١٩٦٨ تحت عنوان "نجيب محفوظ وتطور فن الرواية في مصر"، ومثل المقابلات التي أجريت مع محفوظ ولعل أشملها مقابلة فؤاد دارة التي نشرت في الكاتب في يناير ١٩٦٣. كذلك فان العدد الخاص بنجيب محفوظ من مجلة الهلال المصرية الذي صدر في شهر شباط الماضي وما تضمنه من بحوث وتعليقات ينير جوانب من حياة محفوظ وأدبه.

واخيرا فاني آمل ان تملأ دراستي هذه جزءا من الفراغ الناشئ عن قلعة البحوث التي تنظر الى الادب من زاوية اجتماعية في العالم العربي، وان تلفت النظر الى الدور الذي يلعبه الادب في عكس الحقائق السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتفسيرها في بلد ما أو الخاصة بطبقة اجتماعية معينة، والايحاء بالطريق الذي يجب اتباعه لتجاوز الأوضاع السيئة بعد انتقاد هذه الأوضاع وفضحها.

مـدـخـل

نجيب محفوظ وعلاقته بالطبقة الوسطى وبقضايا عصره

✽ ولد نجيب محفوظ في شهر كانون الاول من سنة ١٩١٢ بالجمالية بجنوب
الحسين (حي الثلاثية) لأسرة رهبان تاجر من الطبقة الوسطى، وسائر أفرادها من
موظفي الحكومة، أو ضفار الملاك والمزارعين. ولما كان في السادسة من عمره
انتقلت الأسرة الى العباسية حيث نشأ نجيب وعاش فترة طويلة من حياته، ومن هنا
كانت القاهرة بالذات وأحيائها القديمة بنوع خاص، مسرح قصصه لأن هذه الأحياء
هي التي عرفها محفوظ جيداً، وعاش سكانها من الطبقة الوسطى الصغيرة والطبقة
الشمسية الفقيرة. ومرت نجيب بالمراحل الدراسية المعروفة (المرحلة الابتدائية،
المرحلة الإعدادية، ثم الثانوية، وأخيراً المرحلة الجامعية)، وتخرج من الجامعة
في عام ١٩٣٤ بليسانس في الفلسفة. وبعد تخرجه عمل في إدارة الجامعة بين
عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٨، ثم انتقل الى العمل في وزارة الأوقاف، وكان لا يزال فيها
عندما انتهى كتابة الثلاثية في ابريل ١٩٥٢. ويلاحظ أن نجيب كتب جميع قصصه
الواقعية موضوع دراستنا أثناء عمله في وزارة الأوقاف وفقاً للترتيب التالي:

القاهرة الجديدة :	من سبتمبر ١٩٣٨	الى ابريل ١٩٣٩
خان الخليلي :	" "	١٩٤٠
زقاق الموق :	" "	١٩٤١
بداية ونهاية :	" "	١٩٤٢
السراب :	" "	١٩٤٣
الثلاثية :	كتبت بين عامي ١٩٤٦ و ١٩٥٢	وتخللت كتابتها

فترات انقطاع متتامة بسبب عمله في التفتيش بوزارة الأوقاف. أما تواريخ نشر هذه
القصص للمرة الاولى فهي كما يلي :

١. ظلي شكوي، المنتمي - دراسة في ادب نجيب محفوظ (القاهرة: مكتبة الزناري،
١٩٦٤)، ص ٣٤٧. وقد اعتمد شكوي على محفوظ نفسه في معرفة هذه
التواريخ.

- القاهرة الجديدة : ١٩٤٥
 خان الخليلي : ١٩٤٦
 زقاق المرق : ١٩٤٧
 السراب : ١٩٤٨
 بداية ونهاية : ١٩٤٩
 بين القصرين : ١٩٥٦
 قصر الشوق والسكرية : ١٩٥٧

* ويلفت النظر في هذه التواريخ الهوية الزمنية التي كانت تفصل بين كتابسة القصة ونشرها . ولا نستطيع أن نحدد مدى اقبال الطبقة الوسطى المصرية على قراءة قصص محفوظ عند نشرها لأول مرة أو بعد ذلك ، لأنه لم تجر أية بحوث ميدانية حول هذا الموضوع ، ولكن يمكن ان نقول بشكل عام ان قصص محفوظ لاقت نجاحا لدى الجمهور المصري المنتمي الى هذه الطبقة بدليل نشرها عدة مرات ، ولأن هذا الجمهور ربما كان الأكثر استهلاكاً للكتب في العالم العربي بسبب ثقافته وضخامة عدده نسبيا .

وتقع أحداث هذه القصص في الفترات التالية :

القاهرة الجديدة وبداية ونهاية : قبيل الحرب العالمية الثانية .
 * خان الخليلي وزقاق المرق : خلال الحرب العالمية الثانية .
 السراب : لا يمكن تحديد تاريخ أحداثها بشكل دقيق لأن الاشارات التاريخية قليلة فيها .

الثلاثية : بين اواخر الحرب العالمية الاولى واواخر الحرب العالمية الثانية (١٩١٧ - ١٩٤٤) : بين القصرين (١٩١٧ - ١٩١٩) ؛ قصر الشوق (١٩٢٤ - ١٩٢٧) ؛ السكرية (١٩٣٥ - ١٩٤٤) .

١ . طبعت كل من خان الخليلي وزقاق المرق والسراب واجزاء الثلاثية الثلاثة * حتى الآن ست مرات متتالية . اما القاهرة الجديدة وبداية ونهاية فقد طبعت كل منهما سبع مرات .

ويلاحظ أن محفوظ يكتب عن الفترة الزمنية التي عاش أحداثها مستخدماً الشكل الواقعي للقصة دون غيره من الأشكال التي عرفها من مطالعته في الأدب الغربي، وبعد تخليه المفاجيء عن شكل الرومانس التاريخية الذي جربه في قصص ثلاث هي: عبث الأقدار، ورادوبيس، وكفاح طيبة. ويحارب محفوظ في تحليل ذلك التحول فيقدم احتمالات ثلاثة له: (١) تطوره الفني (٢) استحواذ عوامل التأخر والفساد في المجتمع على اهتمامه (٣) المزاج الشخصي. — كما يورد في مجال آخر تعليلاً جديداً هو أنه وجد تاريخ مصر غير مشبع، وأنه كان يلجأ للتاريخ من أجل الحاضر، ولم يكن يهتم بالتاريخ كتاريخ. وهكذا فقد رأى أن الطريق المختصر هو اللجوء إلى الحاضر رأساً. وجميع هذه الاحتمالات تبدو غير كافية لأنها تتجاهل حقيقة التطور الذي حدث في مصر في الفترة التي كتب فيها محفوظ قصصه الواقعية، وكذلك في الفترة السابقة لهذه الكتابة والتي يمكن أن تعد ببداية تفاعل محفوظ الواعي مع ما يجري حوله من أحداث. ويذكر محفوظ أن ثورة ١٩١٩ قامت في فترة سابقة جداً على الوعي الوطني والسياسي عنده، ولكنه يؤكد، في الوقت نفسه، أن الثورة تسربت إلى وجدانه في شكل وقائع غير مرتبطة^٣. كما يؤكد حبه الشديد لسعد زغلول وحبه للوطن في آن معاً عندما كان لا يزال فتى صغيراً. كذلك يشير محفوظ إلى اندماجه في الحياة السياسية في مرحلة تعليمه الثانوية، وإلى انضمامه إلى حزب الوفد الذي كان يمثل الشعب بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٣٠^٤. وقد خرج محفوظ من الفترة التي تنتهي بوفاة سعد في عام ١٩٢٧ بثلاثة عوامل: وطنية حادة جداً، عداوة للطبقة العليا — طبقة الملاك والباشوات التقليديين، وإيمان بال دستور لا يقل عن الإيمان بالاستقلال نفسه. وكان لهذه العوامل أكبر الأثر في تكوين شخصيته العامة، ولم ينضم إليها إلا عنصر واحد جديد هو الميل إلى الاشتراكية الذي جاءه

١. الواقعية تطور طبيعى للأدب، الاثنين، ١٩ كانون ثاني، ١٩٥٩، ص ١٠.

٢. نجيب محفوظ، حديث خاص مع كاتب هذه الدراسة، القاهرة، إبريل، ١٩٦٩.

٣. سامح كريم، "نجيب محفوظ وثورة ١٩١٩"، الكاتب، إبريل، ١٩٦٩، ص ٢٣.

٤. عبد الحى، "عصير حياتي"، ص ٢٠.

بفضل كتابات سلامة موسى^١ . وبعد وفاة سعد لم ينس محفوظ النضال السياسي . فهو يعلن أن الفترة التي تلت موت سعد وحتى توقيع معاهدة ١٩٣٦ كانت فترة كفاح مرير جدا من أجل الاستقلال والدستور ، وأنه اشترك في اغلب مظاهرات هذه الفترة ، كما يعلن اعجابه بمصطفى النحاس الذي تميزت شخصيته بصلابة شديدة وإيمان عميق ونزاهة مطلقة "حتى أنها كانت تمثل لنا في مجموعها المثل الأعلى لما ينبغي أن يكون عليه المواطن المصري الصالح"^٢ أما بعد معاهدة ١٩٣٦ فلم تعد مبادئ الوفد تشبع محفوظ^٣ . وكان أملنا في ذلك الوقت أن يتقوى الجناح اليساري في الوفد^٤ . ويبدو أن محفوظ قد اختار الكتابة وسيلة للنضال في هذه الفترة بعد أن يئس من الوفد الذي رُب فيه الفساد . وهكذا جاءت قصصه الواقعية لتعبري الواقع البشع الذي كان يحياه الشعب المصري عقب اجهاض ثورة ١٩١٩ ، ولتنتقد طريقة مواجهة أبناء الطبقة الوسطى المصرية لذلك الواقع وتذكرهم لمبادئ تلك الثورة . وكما كانت قصصه التاريخية مشاركة في العمل الوطني تتسم بالرومانسية الطفائلة ، كذلك كانت قصصه الواقعية اسهاما في كشف المجتمع المصري في الثلاثينات ، وما طرأ عليه من فساد لم تكن البرجوازية نفسها بمعدة عنه مشاركة فيه أو ضحية له .

أما التطورات الاجتماعية التي أثرت في اختيار محفوظ للشكل الواقعي فكان أهمها بروز الطبقة الوسطى المصرية على مسرح الأحداث ، ومشاركتها الفعالة في ثورة ١٩١٩ ، وتوليها قيادة هذه الثورة بشخص سعد زغلول ، وتكوينها لحزب الوفد الناطق باسم مصالحها ، ثم تمكنها من تحقيق العديد من المكاسب ولا سيما تمصير الإدارة ، والحد من منافسة الأجانب لها في مختلف الحقول ، والانتعاش في التعليم . وهكذا نصت هذه الطبقة واتسمت فكان من الطبيعي أن يبرز كتاب يتكلمون باسمها ، ويمثلون أخلاقيتها ، ويعالجون مشكلاتها . وكان نجيب من أكثر الكتاب

١ . كريم ، "نجيب محفوظ وثورة ١٩١٩" ، ص ٢٧ - ٢٨ .

٢ . نفسه ، ص ٢٨ .

٣ . نفسه .

جدارة بالقيام بهذا الدور . فهو واحد من أبنائها عاش الأزمة الخائفة التي مرت بها في الثلاثينات بعد تحسن أوضاعها في أوائل العشرينات . وقد اضطرت وفاة والده لأن يعيل امه وأخته الأرملة وطفليها ، ما جعله يفسخ خطبته ويفترق عن حبيبته لمواجهة الظروف الناشئة عن تلك الوفاة^١ . وهذه مشكلة نموذجية في قصص محفوظ الواقعية . كذلك قدر له أن يعيش كمعظم أبناء هذه الطبقة في قلق من الناحية المادية مدة من الزمن بسبب قلة المعاش^٢ . واستطاع محفوظ ان يتحسس مشكلات الموظفين الذين يشكلون قطاعا هاما من هذه الطبقة في مصر ، وذلك من خلال عمله كموظف في دوائر الحكومة ، وظهر أثر ذلك التحسس جليا في قصصه . وكان لنجيب من موهبته الفنية وثقافته الواسعة ما جعله قادرا على معالجة مشكلات الطبقة الوسطى بصورة أقرب الى الموضوعية والنضج مما فعل غيره من الكتاب ، وان تقصينا لسيرته الأدبية ليوضح لنا أنه في نشاطه واهواره والنظام الصارم الذي اختطه لحياته^٣ كان مثالا لابن الطبقة الوسطى المجتهد والمنظم والواعي للدور الذي يقوم به . وقد اتسعت قراءاته لتشمل الأدبين العربي والغربي ، فضلا عن الفلسفة وسائر العلوم الانسانية ، والفنون التشكيلية ، والعلوم الطبيعية . وفي مجال القصة قرأ نجيب الادب الحديث الواقعي والطبيعي والتحليلي ، والمغامرات الأدبية الحديثة كالتعبيرية عند كافكا ، والواقعية النفسية عند جويس ، والغامز في القصة عند بروس . وعرف الواقعية عند جولسورثي ود . ه . لورنس والدوس هاكسلي وفلووير وستندال ، وتأثر بتولستوي ودوستويفسكي وتشيكوف وبروست وتوماس مان وكافكا من كتاب القصة بنوع خاص . وبدأ بكتابة المقالة والأقصوصة ونشرهما في الصحف ، وكتب قصصا كثيرة لم تنشر ، كما لاقت قصصه اهمال النقاد

- ١ . جانبية صدقي ، لماذا لم يتزوج ، صباح الخير ، يناير ، ١٩٥٨ ، ص ٣٥
- ٢ . فؤاد دواره ، رحلة الخمسين مع القراءة والكتابة ، الكاتب ، يناير ، ١٩٦٣ ، ص ٢٢
- ٣ . يؤكد الذين يعرفون محفوظ تقيدده بالنظام في حياته اليومية بشكل صارم ، راجع مثلا : محمد هفيفي ، نجيب محفوظ رجل الساعة ، الهلال ، فبراير ، ١٩٧٠ ، ص ١٣٧ - ١٤١ .

بادى* الأمر، ومع ذلك تمسك بعناد الثيران، على حد قوله، غير عابى* بصدى قصصه
أو شعبيتها بين النقاد والجمهور^١. وكما رأيناه يتوقف فجأة عن كتابة القصة
التاريخية ليبدأ بمعالجة القصة الواقعية^٢. نراه مرة أخرى يتوقف عن كتابة القصة
الواقعية بعد انتهائه من كتابة الثلاثية في عام ١٩٥٢، لأن الرغبة في نقد المجتمع
القديم ذهبت بذهاب ذلك المجتمع بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢^٣. وبعد توقف
دام سبع سنوات بدأ محفوظ مرحلة جديدة في كتابة القصة يمكن تسميتها بالواقعية
الجديدة، حيث الفكرة تسبق الحدث وحيث الباعث إلى الكتابة أفكار وانفعالات
معينة تتجه إلى الواقع لتجعله وسيلة للتعبير عنها. وانتقل بذلك من معالجة
مآسي المجتمع إلى معالجة مأساة الوجود^٤. وظل، في الوقت ذاته، يستخدم
شخصيات من الطبقة الوسطى في الأغلب.

وتقننا مطالعنا لقصص محفوظ الواقعية أن الكاتب استطاع استيعاب
المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي واجهت الطبقة الوسطى الصغيرة
في مصر في فترة ما بين الحربين، والموايل المختلفة التي كانت تتفاعل داخل المجتمع
المصري آنذاك جاعلة أبناء جيل محفوظ وبعضاً من أبطال قصصهم يحانون من **أزمة**
نفسية غريبة جداً طابعها التشاؤم الشديد والاحساس بعدم قيمة أي شيء في الدنيا
والعبث^٥، أو يتحولون إلى ضائمين وانتهازيين قصيري النظر. ولعل من أبرز

١. هذه المعلومات عن ثقافة محفوظ وكتابات الأولى مأخوذة من دارة، "رحلة الخمسين"

ص ٢٣ - ٢٤

٢. نفسه، ص ١٧

٣. يفرق محفوظ، في مقابلة أجريت معه، بين مأساة الوجود المتمثلة في الموت ومآسي
المجتمع المفتعلة كالجهل والفقر والاستعباد والمنف والوحشية الخ. ويرى
أن حل مأساة المجتمع قد يحل في النهاية مأساة الوجود أو يخففها.

غالي شكلي، "نجيب محفوظ يتحدث عن فنه الروائي"، حوار، مارس - أبريل، ١٩٦٣،

ص ٧٣ - ٧٤

٤. دارة، "رحلة الخمسين"، ص ٢١

هذه المواقف المتصادمة بين الشرق والغرب وحيرة المثقفين بينهما، والمرحلة الانتقالية التي كان يمر فيها المجتمع المصري، وما يعنيه ذلك من اهتزاز في القيم، ونشوء فجوة حضارية بين الأجيال، وفوق ذلك كله أزمات اقتصادية عنيفة، وفساد سياسي شامل، وتحديد شديد للتحرك الاجتماعي وفوارق طبقية حادة بحيث أن ذلك الجيل نشأ، كما يقول محفوظ، "مكبوتا يكدر في داخل نفسه العقد والانطوائية والحرمان والطبقية والفقر وقلة الكرامة والخوف من ضياع لقمة الميش"^١. ولا يمكن أن يفسر التشاؤم الذي يميز هذه القصص بنشأ عن هذه الأوضاع.

إذا كانت قصص محفوظ ثمرة تفاعل مع الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تمر بها الطبقة الوسطى المصرية في فترة ما بين الحربين، وقدرة الكاتب على استيعاب تلك الأوضاع وعيشه تحت وطأتها من جهة، وثقافته الواسعة وتمرسه بكتابة القصة اللذين جعلاه قادرا على نقل تحسسه لهذه الأوضاع في شكل في ناضج يجاري القصة العالمية من ناحيتي الشكل والمضمون من جهة أخرى.

وهكذا كان محفوظ كاتباً ملتزماً في اختياره معالجة مشكلات الطبقة الوسطى المصرية واختياره الشكل الواقعي للقصة في هذه المرحلة من تطوره الفني. ولكن التزامه هذا كان التزاماً ذاتياً داخلياً ناتجاً عن مماناة داخلية صحيحة للواقع الذي كان يعيشه. ويشير محفوظ إلى ذلك بقوله أن ليس ما يدعو للتشيع لمذهب أدبي بمينة غير موقفه الحضاري من الداخل، وأنه إن كان آمن في وقت من الاوقات بأنه كاتب واقعي فقد أخذ ذلك من النقاد^٢. كما يصرح في مقابلة أجريت معه بأن

١. ابراهيم الورداني، "رحلة في رأس نجيب محفوظ"، الجمهورية ١٦ أبريل، ١٩٦٠، ص ٩

٢. دارة، "رحلة الخمسين"، ص ١٩.

مفهوم الطبقة لم يكن في ذهنه في يوم من الأيام، ولكن الكاتب ينتسب عادة إلى مجموعة من المجتمع لا يستطيع بحكم صدقه الفني أن يكتب عن سواها ١.

ويلاحظ قارىء قصص محفوظ الواقعية أن كاتبها يحرص على أن يصور دور البرجوازية الصغيرة بموضوعية، فلا هو يتعامل عليها ولا هو يقف محاميا عنها. وهو يختلف بذلك عن كثير من كتاب القرن التاسع عشر الغربيين الذين عالجوا مشكلات الطبقة الوسطى مستخدمين الشكل الواقعي للقصة أمثال بلزاك وفلوير ودكنز ٢. وتتجلى موضوعيته في الناحية الفنية بنوع خاص. فهو، كما يقول غالي شكري، يسلط أضواءه على مختلف العوامل التي تؤثر في الشخصيات، ولا يبرز عاملا حاسما، ويصور العلاقة الاجتماعية في تفاعلها المعقد مع بقية العلاقات من جانب، ومع الواقع

١. عبد الحي، "عصر حياتي"، ص ٢٠.

٢. يقول بالم أن بلزاك انتقد البرجوازية وصورها كافة تقضي على كل جمال ونقا حقيقيين. ورأى أن الحياة تحت نظامها كانت تحركها الأهواء الدنيئة تحت ستار من الادعاء والمظاهر الخادعة. ورسم بوضوح صور الصراع العنيف والنجاح الذي لا يرحم والاختناق الشير للشفقة في مجتمعها القاسي

The Middle Classes-Then and Now (New York: The Macmillan Comp., 1936), P. 231.

وكذلك يذهب بالم إلى القول أن فلوير لم يكن مراقبا محايدا للمتسلقين اجتماعيا، فهو يكرههم ونادرا ما يرسم الشخصية منهم بمعطف، واحتقار عادات البرجوازيين وافتقارهم للذكا* وازدراءهم للجمال (المرجع نفسه، ص ٢٣٤ - ٢٣٥)

أما موقف دكنز من الطبقة الوسطى فكان متذبذبا، تطلع كشاب إلى راديكالية برجوازية محترمة وهاجم بعض الشرور الاجتماعية، وانتهى كثنوي كهل ذي عدا* غريب للطبقات الوسطى. وقد ظهر أثر ذلك في تصويره لكل طبقة اجتماعية وفي شخصيات قصصه الرئيسية.

Angus Wilson, "The Heroes and Heroines of Dickens" in Dickens-A Collection of Critical Essays Ed. Martin Price, 20th C. Views (Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall Inc., 1967), PP. 18-19.

الحضاري للمجتمع من جانب آخر، ومع التكوين الذاتي لنفسية الفرد من جانب ثالث. كما أنه يستعين بكافة الأدوات الفنية الخاصة بمذاهب أدبية متعددة ولا يتقيد بحرفية الاتجاه الواقعي بل يستهدفه في مدلوله الكبير الشامل^١. وتعميل ذلك كما من فسي تمكن محفوظ الاستفادة من كافة المذاهب والمدارس والفلسفات والمعلوم التي اطلع عليها دون أن يتخذ موقفا حاسما من أي منها. وكان أيضا في اطلاعه على سائر الاتجاهات في القصة قبل أن يختار الاتجاه الواقعي في تلك المرحلة من تطوره الفتي وهذا ما لم يتح لرواد القصة الواقعية الغربيين. وقد استطاع محفوظ أن يخطبوا بالقصة العربية خطوات هامة الى الأمام وتمكن، كما يقول حسن السكوت^٢ أن يخلص القصة العربية من الميوب الفنية التي كانت تظهر في قصص غيره من المؤلفين. فـسـلا نجد في قصصه شرودا عن الموضوع الرئيسي، ولا مصادفات بعيدة، ولا تعليما مباشرا، ولا مبالغة في الحبكة أو رسم الشخصيات. بل نراه يرسم كل وضع بدقة عظيمة وعناية غير عادية بحيث يصح أن يقال ان القصة العربية دخلت بقصصه الواقعية في عهد جديد^٣.

١. شكري، أزمة الجنس في القصة المصرية، ص ١٠١ و ١٢٤. كذلك يؤكد رجاء النقاش حياء محفوظ الفني في قصة الواقعية والذي يتجلى "في التمهين وتصوير البيئة والشخصيات وتغليب الواقع الخارجي على انفعالات الفنان وشاعره". أدباء معاصرون (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٨)، ص ١٧٥.

٢. H. S. A. al-Sakhut, The Egyptian Novel and Its Main Trends from 1913 to 1952 (Unpublished Ph.D Dissertation) cited in al-Warraki, The Novels of Najib Mahfuz Subsequent to the Trilogy, P. 47.

ويمكن القارئ التعرف الى مزيد من الميوب الفنية التي كان يقع فيها كتاب القصة قبل الفترة التي بدأ فيها محفوظ كتابه القصة في:

عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية المصرية الحديثة في مصر (١٨٧٠-١٩٣٨) (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣) ويقارن الكاتب أحيانا بين قصص هؤلاء الكتاب وبين قصص نجيب محفوظ من الناحية الفنية - ص ٢٣٧ مثلا، حيث يقارن بين تصوير البيئة عند عيسى عبيد و محمود تيمور من جهة وعند محفوظ من جهة أخرى.

المفصل الأول

تركيب الطبقة الوسطى المصرية وانعكاسه في قصص محفوظ

ليست محاولة تحديد الطبقة الوسطى بالأمر السهل، لأن المقاييس التي سيعتمد عليها في مثل هذا التحديد تختلف من بلد إلى آخر، كما تختلف أهمية كل منها باختلاف المجتمعات. وهكذا فإن اعتبار الدخل، والسلطة (Power)، والمهنة أو الوظيفة (Occupation) والمرتبة الاجتماعية (Status) كمقاييس، ومحاولة تطبيقها على مجتمع ما بشكل تبسيطي قد يكون أقرب إلى التضليل منه إلى الاستفادة. ولا بد أن يقترن تحديد التركيب الطبقي لأي مجتمع ببحوث ميدانية دقيقة حسنة تأتي نتائجها علمية وواقعية^١. ومع ذلك، وبعد ابداء هذه التحفظات، قد يكون

١. يقدم ريتشارد سنترز (Richard Centers) في كتابه:

The Psychology of Social Classes — A study of Class Consciousness
(Princeton: Princeton University Press, 1944).

نموذجاً جيداً لمثل هذه الدراسة. ويصرف سنترز في هذه الدراسة الطبقات الاجتماعية فيقول أنها في طبيعتها المميزة أو الأساسية يمكن أن توصف بأنها جماعات مبنية على أساس نفسي أو ذاتي، وأن الأجزاء الخمسة لتركيبها هي: ميول أفرادها نحو مفاهيم مشتركة للمؤهلات الضرورية للمعضية فيها، و ميول نحو مفاهيم مشتركة للميزات المهنية لأعضائها، و ميول نحو مواقف ومعتقدات وتصرفات مشتركة في الأمور الاقتصادية والسياسية، وربما ميول نحو مواقف ومعتقدات وتصرفات مشتركة في أمور أخرى عديدة لم تكشف أو تحدّد حتى الآن، وأن =

من المفيد هنا أن نورد تعريفا للطبقة الوسطى أعطاه بيرغر في مجال كلامه عن الطبقة الوسطى في العالم العربي ، وجاء فيه أن هذه الطبقة تضم فئتين من الناس:

- ١ . أولئك التجار والصناعيين الصغار المشتغلين لأنفسهم والذين لا يسمع دخلهم ونفوذهم بوضعهم بين الرجال ذوي القوة الحقيقية في الحياتين السياسية والاقتصادية
- ٢ . فئة أخرى أكثر اختلاطا تضم مهنيين مستقلين كالأطباء والمحامين ، ومدبرين معينين ، وتقنيين ، وعمالا إداريين مثل الكتبة ورؤساء الدوائر الرسمية وموظفي الحكومة المدنيين^١ .

وفي حين لا يوجد اختلاف كبير بين الباحثين بالنسبة لحجم هذه الطبقة و دورها في البلدان الصناعية المتطورة ، نرى أن اختلافا كبيرا في الآراء قد ظهر حول هذا الأمر بالنسبة للبلدان النامية غير الصناعية . فترى باحثا مثل فان نيوننهجز (C. A. O. Van Nieuwenhuijze) ينفي وجود طبقة وسطى في بلدان الشرق الأوسط،

== هذه السيول المشكلة كلاتاما في تركيب الطبقات الاجتماعية هي رد فعل الأفراد أو استجاباتهم لأوضاع حياتهم المعقدة كلها . ولكنها تحدد إلى حد كبير بمرتبتهم الاجتماعية وأدوارهم في نشاطاتهم المعيشية . كما يعطي نتائج بحوثه بالنسبة لتركيب الطبقة الوسطى في الولايات المتحدة الأميركية انطلاقا من هذا التعريف .

١) Morroe Berger, "The Middle Classes in the Arab World" in the Middle East in Transition, ed. Walter Laqueur (London: Routledge, 1958), P. 63.

وينفي بالتالي وجود نظام طبقي ذي أنماط تحركية. ويرى أنه توجد فقط فئات عليا وفئات سفلى مميزة بالدرجة الأولى بذاتها، ومختلفة بشكل ثانوي عن سائر السكان وتوجد أخيراً ظاهرة ذات طبيعة ثانوية هي الفئات المتفرقة ذات الوضع المتوسط (Intermediate) وليس الأوسط (Middle) ^١.

ونرى من ناحية أخرى باحثاً هو مانفرد هالبرن يؤكد ليس فقط وجود طبقة وسطى في هذه البلدان يسميها الطبقة الوسطى الجديدة، بل يؤكد أيضاً الدور الكبير الذي تلعبه بتسلمها المتزايد لدور القيادة في كل مجالات حياة الشرق الأوسط. وتضم هذه الطبقة المديرين، والاداريين، والمعلمين، والمهندسين، والصحفيين، والمحامين، وضباط الجيش. وتختلف عن شيلتها في البلدان الصناعية، لأن الشرق الأوسط انتقل إلى العصر الإداري الحديث قبل أن يصل إلى العصر الآلي، ووصلت الطبقة الوسطى فيه إلى السلطة قبل أن تضمن مرتبتها وتضمن النظام والأمن والازدهار. وهكذا فهي تستعمل سلطتها ليس للدفاع عن الملكية والنظام بسبل لا يجادها، ودون أن تكون ملتزمة نهائياً بأي نظام معين من المؤسسات. وتلعب هذه الطبقة الوسطى الجديدة المماشية دوراً أهم بكثير من دور الطبقة الوسطى صاحبة الملكية لأنها تدير الدولة التي لا يمكن أن تجاريها أية مؤسسة أخرى من حيث القوة والرأس مال. ويشكل أهل الفكر القوة الأكبر والأنشط سياسياً في هذه الطبقة، وقد يأتي هؤلاء من عائلات مغمورة، ويحدد عضويتهم الطبقيّة

C. A. O. Van Nieuwenhuijze, Social Stratification in the Middle East (Leiden: E. J. Brill, 1965), P. 77.

الدور الذي يقومون به وليس انتماءهم المائلي لطبقة اجتماعية تقليدية معينة. كذلك يشكل الشباب الآتون من المناطق النائية الممرد الفقري لهذه الطبقة. ويشير هالبرن أخيرا الى أن هذه الطبقة تساعد بدورها على نشوء طبقتين أخريين قريبتين منها، هما: الطبقة الوسطى الكبيرة، والطبقة الوسطى الصغيرة^١.

وبالنسبة للطبقة الوسطى المصرية يرى بيرغر أنها كانت تشكل في عام ١٩٤٧ حوالي ٣٪ من مجموع السكان، وحوالي ٦٪ من السكان المستخدمين مقابل أجر مريح، وأن حوالي نصف هذه الطبقة كانوا من التجار الصغار. وتزيد نسبة الكتبة من رتب مختلفة على نسبة المهنيين كالمثليين والأطباء والكيميائيين والصيدالة ومدراء المدارس واساتذة الجامعة واساتذة المدارس والمؤلفين والمحرفين والمحامين والمهندسين. أما رجال الأعمال والوكلاء فلم يكونوا يشكلون سوى نسبة ضئيلة من هذه الطبقة^٢.

ويرى حسن الساعاتي من ناحية أخرى، أن هذه الطبقة كانت تشكل في العام ذاته حوالي ١٦٪ من مجموع السكان. ذلك أنه يدخل في حسابها الطبقة الوسطى الزراعية التي كانت تشكل، في رأيه، ٨١،٦٪ من الطبقة الوسطى المصرية ككل. أما المشتغلون بالصناعة من هذه الطبقة فكانوا يشكلون ١٠،٥٪ منها، وبتجارة البنساء ٠،٤٪، وبالنقل والبريد ١،٦٪، وبالتجارة ٩،٦٪. أما الذين يؤدون خدمات

١. Manfred Halpern, The Politics of Social Change in the Middle East and North Africa (Princeton: Princeton University Press, 1963), PP. 51-71.

٢. Berger, "The Middle Classes...", PP. 63-64.

عامة واجتماعية كالفنانين والأطباء والمعلمين والاساتذة الجامعيين والمؤلفين والصحفيين ورجال الدين والاداريين العامين والمحليين والقضاة والمجامين وضباط البوليس والجيش فكانوا يشكلون ٣٠٧٪. وكان المشتغلون بالخدمات الشخصية يشكلون ٠٣٪، وأصحاب الأعمال الفاضلة وغير المربحة ٠٧٪، والطلاب ٠٠٦٪. وهكذا فان الطبقة الوسطى في المدن كانت تشكل نسبة ١٨٠٤٪ من مجموع الطبقة الوسطى المصرية اي حوالي ٣٪ من مجموع السكان^١. وبذلك يتفق الساعاتي مع بيرغر بالنسبة لحجم هذه الطبقة المدنية.

ويرى هالبرن بالمقابل أنه لو أحصيت الطبقة الوسطى الجديدة المكونة من أصحاب الرواتب الموظفين منهم وغير الموظفين لارتفعت النسبة كثيرا عما ذكر كل من بيرغر والساعاتي^٢.

ويرجع الدكتور محمد أنيس نشأة الطبقة الوسطى المصرية الى القرن الثامن عشر، ويرى أنها كانت تتمثل في جناحين: المشايخ ورجال الدين من ناحية، والتجار والحرفيين من ناحية أخرى^٣. وأخذ ساعد هذه القوة الجديدة يشتد

١. Hassan El-Saady, "The Middle Classes in Egypt", L'Egypt Contemporaine, April, 1957, P. 50.

٢. Halpern, The Politics of Social Change, P. 53, Footnote.

٣. تنقل ليلي حمامي في بحث لها بعنوان

"Rural and Urban Social Structure in Egypt", PP. 24-25.

قدم الى بعثة الأمم المتحدة الخاصة بمشكلات التمدن في بلدان حوض البحر المتوسط، نوفمبر ١٩٥٦، عن بحث غير مطبوع لناديا حجاج بعنوان "Changes in Egyptian Family Life" عرضا تاريخيا للتقسيم الطبقي في مصر = ر

سياسيا أكثر منه اقتصاديا حتى استطاعت في اصطدامها مع البكوات والماليك في أواخر عهدهم أن تحرز انتصارات كثيرة عليهم. كما لعبت دورا كبيرا في مقاومة الاحتلال الفرنسي وفي تثبيت حكم محمد علي وابقائه حاكما على مصر. ولكن هذا ما لبث أن أطاح بهذه القوة الناهضة، وأقام دولته على أكتاف مجموعة من الموظفين والأتباع من الأتراك والألبان والأجانب الذين جعلوا محل طبقة الماليك سابقا وقوي نفوذهم بصورة خاصة في عهد اسماعيل. إلا أن سياسة محمد علي الاقتصادية في الإدارة والتربية وأصلاحياته في هذه المجالات والتي أدت إلى تقلص نفوذ العلماء بعد انتشار الأفكار الغربية والعلم، وإلى معاناة التجار والحرفيين من احتكار التجارة والصناعة، أدت من ناحية أخرى إلى بروز طبقة وسطى مصرية جديدة نشأت من الزراعة بعد إرساء نظام الملكية الخاصة للأرض. كما أن مجالا هاما من مجالات هذه الطبقة كان بيروقراطية الدولة ومنها العسكرية^١. ومن هذين الجناحين

== تحاول فيه الكاتبة أن تحدد التركيب الطبقي للمجتمع المصري في عهد الماليك على الشكل التالي : ١. الماليك الحاكون. ٢. العلماء المتنورون وذوو النفوذ على الماليك. ٣. التجار ذوو الثروة والذين كانوا بالإضافة إلى بعض الرسميين والسكرتيرين وبعض العلماء يكونون طبقة وسطى صغيرة متممة بالرخاء. ٤. الحرفيون والصناع المهرة. ٥. الفلاحون.

١. يذكر غابرييل بير أن محمد علي حاول أن يحل شيوخ القرى والهد والمصريين محل الأتراك في المستويات السفلى من الإدارة. وأنه في عام ١٨٤٠، وللمرة الأولى، حاول أن يحل ضباطا مصريين في البحرية محل الضباط الأتراك. أما سعيد فقد أعاد التجربة على نطاق واسع، فأمر بأن يكون ثلث نظراء الأقسام ونصف حكام الخط من المصريين، وقبيل انتهاء حكمه كان أغلب الأتراك قد أعفوا من وظائفهم. وفي الوقت ذاته، حاول سعيد أن يوجد طبقة من الضباط المصريين، فاستدعى أبناء شيوخ القرى الذين سبق أن أعفوا من الخدمة ==

للبرجوازية المصرية تألفت النواة التي تصدت للتدخل الأجنبي السياسي والعسكري الذي بدأ في عهد محمد علي وتفاقم في عهد اسماعيل وهي الحركة المعروفة بالثورة الصرايية. كذلك ظهرت في عصر محمد علي طبقة جديدة من المثقفين المتأثرين بالثقافة الغربية ولا سيما الفرنسية يمثلهم رفاة رافع الطهطاوي^١.

ويشير عبد العظيم رمضان الى اختلاف ظروف نشأة البرجوازية في مصر عن ظروف نشأتها في أوروبا، واختلاف الدور التاريخي والسياسي لكل منهما. فالطبقة البرجوازية المصرية "لم تنشأ على المسرح السياسي - أي لم تقم بدور سياسي - بوصفها طبقة جديدة تتميز بنظام خاص معين من الانتاج لا يقوم على تملك الأرض وتسعى لتثبيت أركان هذا النظام وتثبيت قواعده على أنقاض النظم القديمة القطاعية،

== حتى ذلك الحين، وكان أحمد عرابي واحدا منهم وبلغ رتبة البكاشي في عام ١٨٦٠. ولكن تجربته لم تنجح وترك عديد من الضباط وحداتهم أو تهربوا من الخدمة، مما اضطر سميد الى صرف معظم ذلك الجيش. وأكمل اسماعيل سياسة سميد. ولكن النتيجة كانت حلولا جزئيا لمدراء مصريين مكان الأتراك. وفي نهاية السبعينات، كانت مستويات الادارة السفلى، مع ذلك، مصرية تماما وكذلك الأمر بالنسبة للجيش. ولكن الأتراك والشراسة ظلوا محتفظين بالسيطرة على المراكز التي تصدر الأوامر فيه. وكان ذلك احدى المظالم التي أدت الى الثورة الصرايية.

Gabriel Baer, "Social change in Egypt: 1800-1914", in Political and Social Change in Modern Egypt ed. P. M. Holt (London: Oxford University Press, 1968), PP. 148-149.

١. محمد انيس، "مصر من الاقطاع الى الرأسمالية ١٧٩٨ - ١٨٨٢"، الكاتب، يوليو، ١٩٦٥، ص ١٠٦ - ١٢١.

وانما برزت كطبقة وطنية يتحدد مكانها اجتماعيا بين الطبقة الحاكمة الأجنبية التي كانت تتكون ان ذاك من شراكسة وأتراك وأرناؤوط وغيرهم ، وبين طبقة الفلاحين الملتصقة بالأرض. " ويؤكد أنها نبعث في الأصل من طبقة ملاك الأرض ولم تنبع من الطبقات الدنيا فلم يقم في مصر صراع بين الطبقتين الاجتماعيتين اللتين تمثلان القطاع والرأسمالية^١.

" وفي عهد الاحتلال تضخمت قوة الطبقة البرجوازية المصرية الزراعية نتيجة عناية الاحتلال بالزراعة. ومن الناحية السياسية أيضا اعتمد الاحتلال على الرأسمالية الزراعية المصرية ، فمنهم كان يتشكل مجل شورى القوانين والجمعية العمومية حتى عام ١٩١٣ ، ثم الجمعية التشريعية بعد ١٩١٣ و مجالس المديرية^٢. وقد اشتركت هذه الطبقة مع المفكرين من ذوي العقائد الحرة أمثال أحمد لطفي السيد في تكوين حزب الأمة^٣. أما فئات البرجوازية المصرية المثقفة من موظفين

١. عبد المظلم رمضان ، تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٣٦ (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٦٨) ، ص ٢٥. ويرى غابرييل بيران عدم وجود طبقة مصرية اهتمت بها الرئيسي متركز في المدن وفي تنمية الاقتصاد المدني على غرار البرجوازية الأوروبية عائد الى تداخل طبقتي التجار والرسميين من جهة والفلاح من جهة أخرى. وميل الأولى الى شراء الأرض واتجاه الثانية الى التوظيف في الحكومة في القرن التاسع عشر.

Holt, Social Change in Egypt..., P. 158.

٢. محمد انيس، "ثورة ١٩١٩ تحالف الطبقات بقيادة الرأسمالية الوطنية"، الكاتب، أغسطس، ١٩٦٥، ص ١٧.

٣. رمضان ، تطور الحركة الوطنية، ص ٤١.

وطلبة ومحامين فلم تتقدم كثيرا في هذا الدور ، لأن الاحتلال لم يشجع التعليم ، ولم يتوسع فيه كثيرا ، وبسبب مزاحمة الأجانب لها . وكانت هذه الفئات تعمل تحت لواء الحزب الوطني في الأغلب^١ . ويلاحظ أنه لا نكاد نسمع في هذه الفترة (حتى الحرب الأولى) أي ذكر لطبقة وسطى صناعية أو تجارية ، لأن الأجانب كانوا مهيمنين ليس فقط على استثمار الأموال على نطاق واسع وعلى الصناعة والتجارة الكبيرتين ، بل أيضا على الصناعة والتجارة الصغيرتين^٢ .

أما ظروف الحرب الأولى فقد أفادت بعض فئات الطبقة الوسطى ، وأضررت ببعض الآخر منها . ومن الفئات التي أفادت من ظروف الحرب الرأسمالية الوطنية . ذلك أنه عندما نشبت تلك الحرب كان أول آثارها انقطاع سيل رؤوس الأموال الأجنبية . وكان الأثر التالي تمرد استيراد معظم السلع الجاهزة من البلدان الأجنبية "وهكذا أتيح لرأس المال المصري فرصة النزول إلى السوق التي كانت وقفا على رأس المال الأجنبي ، في ظل حماية الزامية جادت بها ظروف الحرب" . وقد استفادت الرأسمالية المصرية من تلك الفرصة ، فدخلت ميدان الصناعة ، ونظمت صفوفها على أثر تأليف الحكومة "لجنة التجارة والصناعة" المعروفة في ١٩١٦ من فحول الرأسماليين المصريين ومن بينهم طلعت حرب . وظهرت مشاريع صناعية ولكنها كانت من النوع المحدود الذي يتبع نظم الإنتاج الفنية المتيقة^٣ .

١ . نفسه ، ص ٢٤٠ .

٢ . Charles Issawi, Egypt at Mid-Century-An Economic Survey (London: Oxford University Press, 1954), P. 42.

٣ . رمضان ، تطور الحركة الوطنية ، ص ٧٠ - ٧٢ .

ومن هذه الفئات أيضا البرجوازية الصغيرة المكونة من صغار التجار والصناع والتي كانت محتجة في فترة ما قبل الحرب وراء طبقة كثيفة من العناصر الأجنبية التي تولست زمام النشاط التجاري والصناعي في البلاد ، ولم تترك للعناصر الوطنية سوى الأعمال البسيطة . ولكن ظروف الحرب أتاحت لها بعض الانتعاش بسبب اختلال التبادل التجاري وقيام صعوبات في سبيل استيراد المصنوعات ، وعودة الكثير من الأجانب إلى أوطانهم . وهكذا برز إلى الميدان بعض أهل الحرف ونشطت التجارة ^١ .

أما الفئة التي أضرت بها ظروف الحرب فهي التي يدعوها رمضان فئة الانتلجنسيا . وكانت هذه الفئة غربية في ديارها محرومة من شغل المراكز اللائقة بها ، فقد احتجبت اجتماعيا في أوائل عهد الاحتلال وراء ثلاث فئات استولت على أهم المناصب وأعلامها نفوذا في الدولة وأكبرها أجرا وهي : الأجانب والسوريون والانجليز . وكانت فترة الحرب محنة لها إذ عانت من ارتفاع أسعار السلع الاستهلاكية . كما أن انتهاء الحرب شهد تدفق الموظفين الانجليز ، وبالتالي ازدياد متاعب هذه الفئة . وتتصل بهذه الفئة فئة الطلاب التي كان أفرادها يواجهون مشكلة المزاومة الأجنبية بـ ^٢ تخرجهم .

وكان انتهاء الحرب يعني انتهاء مكاسب الفئات المستفيدة من ظروفها والمتطلعة إلى مكاسب أكبر من ناحية ، دون أن يعني تخفيف مشكلات الفئات المتضررة أو حلها من ناحية أخرى . ولعل هذا ما يفسر مشاركة الطبقة الوسطى المصرية في ثورة ١٩١٩ ولعبها دورا بارزا ورئيسيا فيها .

١ . نفسه ، ص ٧٢ - ٧٤ .

٢ . نفسه ، ص ٧٤ - ٧٨ .

ومع أن الطبقة الوسطى لم تحقق جميع أهدافها من الثورة، إلا أنها خرجت منها بمكاسب عديدة. ولعل تأسيس بنك مصر في عام ١٩٢٠ كان أهم هذه المكاسب على الإطلاق. وقد وصل رأسمال هذا البنك إلى مليون جنيه في عام ١٩٢٧، وأسست شركات صناعية عديدة بلغ مجموع رأسمالها حتى عام ١٩٣٨ ثلاثة ملايين ونصف المليون جنيهاً، واحتياطيها مليوناً ونصف المليون من الجنيهاً. كذلك فإن التمديد الجمركي في عام ١٩٣٠ لعب دوراً كبيراً في تشجيع الصناعة المصرية وهكذا بدأ الرأسمال المصري يحل تدريجياً محل الرأسمال الأجنبي. وفي حقبة التجارة أيضاً أخذ المصريون يحلّون محل الأجانب بحيث صاروا يشكلون نسبة متزايدة بعد أن كانوا أقلية لا تكاد تذكر في عام ١٩٢٠. وهكذا صار التجار والصناعيون المصريون قوة هامة بعد الحرب العالمية الثانية وصار بإمكانهم، كما تقول ليلسى الحامصي، أن ينافسوا الأجانب بشكل جدي وأن يتحدوا، بمعونة المهنيين، سلطة ملاك الأرض بشكل جدي أيضاً^٢.

ومن المكاسب التي حققتها فئات الطبقة الوسطى المصرية الأخرى تعصير الإدارة تدريجياً بعد تصريح فبراير سنة ١٩٢٢. وقد لعبت وزارة سعد في سنة ١٩٢٤ دوراً بارزاً في هذا المجال^٣. ومنها أيضاً التوسع في التعليم بعد سنة

١) Charles Issawi, "The Entrepreneur Class" in Social Forces in the Middle East ed., S. N. Fisher (Ithaca: Cornell University Press, 1955), PP. 126 - 127.

٢) Al-Hamamsy, "Rural and Urban Social Structure in Egypt", P. 29.

٣) لمعرفة بعض التفاصيل عما حققته وزارة سعد راجع رمضان، تطور الحركة الوطنية، ص ٤٥٦ - ٤٥٧.

١٩٢٤ فزاد عدد الطلبة في المدارس بنسبة كبيرة كما ارتفعت ميزانية التعليم . وقد أدى ذلك ، كما يقول راشد البراوي ، الى ظهور طبقة وسطى جديدة تقيم في المدن وتشمل :

- ١ . صفار ومتوسطي موظفي الحكومة . وهم يمثلون نسبة كبيرة ، و يعملون في الادارات والمصالح المختلفة في كل مكان ، و دور العلم المتعددة في شتى مراحلها . و منهم عدد كبير من ضباط الجيش والبوليس .
 - ٢ . صفار ومتوسطي موظفي الشركات والمشروعات غير الحكومية و مستخدميه من المصريين .
 - ٣ . معظم رجال المهن الحرة مثل الأطباء ، والمحامين ، والمهندسين ، والمحاسبين ، والكتاب ، والصحفيين ، والأديباء .
 - ٤ . طلاب الجامعات والمعاهد والأزهر .
 - ٥ . العدد الوفير من صفار رجال التجارة والصناعة .
- ويبدو أن هذه الفئات التي يطلق عليها البراوي اسم الطبقة الوسطى الجديدة كانت تشكل المرتبتين الوسطى والسفلى من الطبقة الوسطى المصرية في ذلك الدور . ويبدو كذلك أن الهوة بدأت تتسع بين هذه الفئات وبين الفئات الصناعية والتجارية الكبيرة أثناء الحرب الثانية بنوع خاص إذ دخلت هذه الأخيرة مرحلة الاحتكار ، في حين أن ظروف الحرب وآثارها " شكلت ضغطاً لا هوادة فيه على أوضاع الطبقة الوسطى المعاشية والصغيرة التي لم يرتفع دخلها الا قليلاً جداً " ٢٠ .

١ . راشد البراوي ، حقيقة الانقلاب الأخير في مصر (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٢) ، ص ٧٤-٧٥ .

Issawi, Egypt at Mid-Century, P. 262.

وهكذا فان تركيز محفوظ على هذه الطبقة الوسطى الجديدة دون غيرها كان له ما يبرزه في الفترة التي كتب فيها قصصه في حدسه لدور الطبقة الوسطى المصرية ومشكلاتها . ويبقى ابراز تركيب هذه الطبقة في تلك القصص ومدى توافقه مع ما أورده الباحثون عن تركيبها .

ولعله من المفيد أن نبدأ بإثبات جداول بأسماء شخصيات قصص محفوظ موضوعنا مستنفا مع ذكر وظيفة كل منهم معتمدين في ترتيبهم على أهميتهم في تلك القصص . وذلك تسهيلا لعملية التحليل والاستنتاج ، ولكي تتضح هذه العملية للقارى ليتأكد من مدى صواب الاستنتاجات .

القاهرة الجديدة :

- ١ . محبوب عبد الدائم — طالب جامعي ثم موظف (درجة سادسة) . والده كاتب بشركة الألبان اليونانية بالقناطر خدمة ٢٥ عاما ومرتب ٨ جنيهات .
- ٢ . علي طه — طالب جامعي — ابوه مترجم ببلدية الاسكندرية أحواله المادية جيدة .
- ٣ . مأمون رضوان — طالب جامعي — ابوه مدرس بالمعاهد الدينية ذو مرتب حسن .
- ٤ . سالم الاخشيدي — سكرتير الوزير ومرشح ليكون مدير مكتبه (درجة خامسة) .
- ٥ . احمد بدير — طالب جامعي وصعفي .
- ٦ . احسان شحاته — طالبة — والدها يملك دكان سجائر بجوار الجامعة .
- ٧ . احمد افندي حمداني — مهندس بالقناطر سابقا .

غان الغليلي:

١ . احمد عاكف - موظف صغير (درجة ثامنة) بوزارة الأشغال - يحمل البكالوريا .

٢ . رشدي عاكف - موظف في بنك - يحمل بكالوريوس في التجارة .

٣ . أحمد راشد - محامي .

٤ . عاكف افندي والد أحمد - موظف سابق محال على المعاش - مرتبه ٦ جنبيها .

٥ . الست دولت أم أحمد - تعمل في البيت فقط .

٦ . نوال خليل - طالبة .

٧ . كمال أفندي خليل - موظف بالمساحة .

٨ . سليمان بك عتة - مفتش بالتعليم العالي .

٩ . سيد افندي عارف - موظف بالمساحة .

١٠ . نونو الخطاط - خطاط .

١١ . المعلم عباس شفة - يتاجر به زوجته .

١٢ . المعلم زفتة - صاحب مقهى .

زقاق المدق :

١ . عباس الحلو - حلاق ، ثم عمل مع الانجليز .

٢ . حميدة - لا عمل لها ثم ارتيست .

٣ . سليم علوان - صاحب وكالة عطاراة بالجملة والتجزئة .

٤ . المعلم كرشة - صاحب مقهى .

٥ . حسين كرشة - يعمل مع الانجليز - ٣٠ قرشا في اليوم .

- ٦ . رضوان الحسيني — يملك بيتا وبعض الأرض.
- ٧ . السيد درويش — ولي من أولياء الله . كان مدرسا في وزارة الأوقاف ثم صار كاتباً ثم ترك الوظيفة.
- ٨ . فرج ابراهيم — قواد — ناظر مدرسة تخرج أرتيستات.
- ٩ . سنية عفيفي — تملك بيتا .
- ١٠ . زوجة المعلم كرشة — لا عمل لها خارج البيت.
- ١١ . زهبة صانع الماهات.
- ١٢ . الدكتور بوشي — طبيب أسنان بلدي .
- ١٣ . جمدة وزوجته — يملكان فرنا .
- ١٤ . عم كامل — بائع البسبوسة .
- ١٥ . أم حميدة — خاطبة .

بداية ونهاية :

- ١ . حسنين كامل — طالب ثانوي ثم ضابط — والده كان موظفا بوزارة المعارف خدم حوالي ٣٠ عاما بمرتب قدره ١٧ جنيها ومماش لورثته قدره ٥ جنيها.
- ٢ . حسين كامل — طالب ثانوي ثم كاتب بمدرسة طنطا الثانوية — مرتتب ٧ جنيها.

- ٣ . حسن كامل — تجارة مخدرات وغنا . . .
- ٤ . نفيسة كامل — علم قليل — خياطة .
- ٥ . الأم — عمل داخل البيت .
- ٦ . فريد افندي محمد — موظف درجة سادسة — ١٨ جنيها .
- ٧ . بهية ابنته — لا تتعلم ولا تعمل .
- ٨ . أحمد بك يسري — مفتش غني .

- ٩ . حسان حسان - ناظر مدرسة .
١٠ . علي صبري - مغني .

السراي :

- ١ . كامل رؤية لاط - موظف بإدارة المخازن بدويان الأوقاف - مرتب ٧٤
جانبها .
٢ . والدته - لا عمل لها خارج البيت .
٣ . والده - لا عمل له - من الأعيان .
٤ . رباب جبر - مدرسة بروضه أطفال العباسية .
٥ . الامير الاني عبد الله بك حسن - ضابط متقاعد .
٦ . جبر بك السيد - مفتش ري بالأشغال .
٧ . أمين رضا - طبيب .

الثلاثية :

أ - بين المقصرين :

- ١ . احمد عبد الجواد - تاجر صغير - تعليم دون الابتدائي .
٢ . فهمي عبد الجواد - طالب حقوق .
٣ . ياسين عبد الجواد - كاتب بمدرسة النحاسين - تعليم ابتدائي .
٤ . أمينة - لا علم ولا عمل خارج البيت .
٥ . عائشة - لا علم ولا عمل خارج البيت .
٦ . خديجة - لا علم ولا عمل خارج البيت .
٧ . كمال عبد الجواد - طالب صغير .
٨ . محمد عفت - تاجر .

- ٩ . ابراهيم الفار - تاجر .
- ١٠ . علي عبد الرحيم - تاجر .
- ١١ . ابراهيم و خليل شوكت - من أسرة تركية الأصل كانت واسعة الثروة .
- لا يعملان . دخل كل منهما ٣٠ جنيها شهريا .
- ١٢ . زينب بنت محمد عفت وعروس ياسين عبد الجواد - لا عمل لها .
- ١٣ . متولي عبد الصمد - من أولياء الله .

ب - قصر الشوق :

- ١ . كمال عبد الجواد - طالب جامعي - دار المعلمين .
- ٢ . سائر شخصيات بين القصرين فيما عدا فهمي عبد الجواد .
- ٣ . عائدة شداد - طالبة - ابنة عبد الحميد شداد المضارب بالبورصة .
- ٤ . حسين شداد - طالب جامعي .
- ٥ . حسن سليم - طالب جامعي - ابوه مستشار بمحكمة الاستئناف .
- ٦ . اسماعيل لطيف - طالب جامعي .
- ٧ . فؤاد الحمزاقي - طالب جامعي ، والده يعمل في دكان احمد عبد الجواد .

ج - السكينة :

- ١ . أحمد شهكت - طالب جامعي .
- ٢ . عبد المنعم شوكت - طالب جامعي .
- ٣ . كمال عبد الجواد - مدرس ابتدائي وكاتب .
- ٤ . رضوان ياسين - طالب جامعي ثم سكرتير الوزير .
- ٥ . رياض قلندس - مترجم بوزارة المعارف وكاتب .

- ٦ . فؤاد الحمزاوي — مساعد نيابة ، ثم وكيل نيابة .
- ٧ . سوسن حماد — محررة في مجلة . ابنة عامل .
- ٨ . حلمي عزت — طالب جامعي .
- ٩ . عبد الرحيم باشا عيسى — وزير .
- ١٠ . علوية — طالبة جامعية .
- ١١ . ابراهيم رزق — محرر في مجلة .
- ١٢ . ياسين واحمد عبد الجواد ، أمينة ، ابراهيم شوكت ، خديجة ، عائشة ،
نعيمة ابنة عائشة (ثقافة ابتدائية) .

* كذلك قد يكون من المفيد أن نعرض هذه القصص مشيرين بشكل خاص الى انتماء شخصياتها الرئيسية الطبقي ، و مواقعها على السلم الاجتماعي ، لكي تصبح الأسس التي ستبنى عليها الاستنتاجات حول تركيب الطبقة الوسطى في قصص محفوظ أكثر صلابة .

١ . القاهرة الجديدة : الشخصية الرئيسية في هذه القصة طالب جامعي يدعى محبوب عبد الدائم . وهو ابن لكاتب بشركة ألبان يونانية له من الخدمة خمسة وعشرون عاما و مرتبه ثمانية جنيهاً . فهو اذا من الطبقة الوسطى الصغيرة . ولكن طموح محبوب وتطلعه الطبقي يؤكد ان سميه الى تجاوز طبقته ، وقد نجح في ذلك حوالي منتصف القصة عند ما عين سكرتيرا للوزير مقابل قبوله الزواج من عشيقته ذلك الوزير .

وفي القصة طالبان آخرا نيلمبان دورا مهما فيها هما علي طه و مأمون رضوان . ووالد الأول مترجم بلدية الأسكندرية ذو مرتب ضخم ، ووالد الثاني مدرس بالمعاهد الدينية ذو مرتب حسن . وهكذا فانهما في مرتبة اجتماعية أعلى من مرتبة محبوب . ولكنهما لا يتميزان مثله بالتطلع الطبقي الى أعلى . ان كان لهما من ايمانهما — الأول بالملم والاشتراكية والثاني بالاسلام — ما يدفعهما الى حل جذري للمشكلة الطبقيّة .

وفي القصة أيضا موظف ناجح ضمن له انحرافه السياسي والخلقي أن يعين سكرتيرا للوزير بعد تخرجه من الجامعة. ثم أصبح فيما بعد مديرا لمكتبه وصفيار معدودا من الطبقة العليا.

أما الفتاة الوحيدة في القصة فهي احسان شحاتة الطالبة وابنة عم شحاتة صاحب دكان السجائر قرب الجامعة. وهي بطموحها الذي أدى بها الى ممارسة الدعارة يمكن أن تعتبر من الطبقة الوسطى الصغيرة برغم سوء حال عائلتها الكبيرة. وفي القصة أخيرا مهندس شي وطالب صحفي لا يلعبان دورا هاما.

٢. خان الخليلى : الشخصية الرئيسية في هذه القصة موظف صغير بوزارة الأشغال (درجة ثامنة) يحمل شهادة البكالوريا اسمه أحمد عاكف. وتتجلى في هذه الشخصية حساسية أبناء الطبقة الوسطى الشديدة والأزمات النفسية التي يعانون منها عندما تضطرب الظروف الى التوقف عند حد معين على السلم الاجتماعي أقل مما يطمحون اليه. ووالد أحمد موظف صغير محال على المعاش بمرتبة قدره ستة جنيهات. أما أخوه رشدي الذي يحمل شهادة بكالوريوس في التجارة فيعمل موظفا في أحد البنوك. ولا يبدو أن المشكلة الطبقيّة تشغل رشدي كثيرا، لأن السكر والقمار والمشق لا تترك له مجالا للتفكير في مآعدها. وهكذا فهو لا يسهم في الارتفاع بأسرته من مستوى الطبقة الوسطى الصغيرة.

وفي القصة عدد من الموظفين أبرزهم كمال أفندي خليل الموظف بالمساحة الذي يخبرنا المؤلف أنه "يعتبر من صفار الموظفين، ومن يكافحون بعزيمة صادقة في ظروف دقيقة - للنهوض بأسرهم"^١. ويلجأ هؤلاء الى الحشيش تناسيا لمشكلاتهم.

١. نجيب محفوظ، خان الخليلى (الطبعة السادسة) القاهرة: دار مصر للطباعة، (لات)، ص ١٦٦.

وفيها محام ذو اتجاه يساري يدعى أحمد راشد لا نعلم الكثير عن وضعه الطبقي .
كما نقابل في القصة شخصيات تنتمي الى الطبقة الدنيا مثل نونو الخطاط والمعلم
زفتة صاحب المقهى .

٣ . زقاق المدق : ليس في هذه القصة شخصية رئيسية واحدة . ولعل
أبرز شخصياتها المنتمية الى الطبقة الوسطى سليم علوان التاجر الجيد الأحوال
الذي يمكن أن يمد من أهالي هذه الطبقة من حيث ثروته على الأقل . وقد عبر عن
ارتقائه الطبقي بعمد ازدياد ثروته بانتقاله من الجمالية حيث كان يسكن وعائلته الى
قصر منيف بالحاحية . كما فكر في ترشيح نفسه للنياحة . ولكن أحدا من ابناءه لم
يشتغل بالتجارة .

ومن هذه الشخصيات ايضا رضوان الحسيني الرجل المتدين الذي يملك
بيتا وبعض الأرض . ويبدو أن ما يحظى به من احترام الناس وتقديرهم ، وبالتالي
المرتبة الاجتماعية الجيدة التي له عائدة في الدرجة الأولى الى تدينه وصلاحه .
وتلفت نظرنا في القصة شخصية طريفة هي السيد درويش الذي تحول الى
ولي من أولياء الله بعد ان ترك وظيفته بموزارة الأوقاف على اثر انزاله من الدرجة
السادسة الى الثامنة وانخفاض مرتبته الاجتماعية .

أما سائر شخصيات القصة فمن الطبقة السفلى . ولكن طموح حميدة فتاة
الزقاق ، وسعي محبها وخاطبها عباس الحلواني تحسين حاله وطموح حسين
كرشة ابن المعلم كرشة صاحب مقهى الزقاق ، قد يفرينا بعمدهم من الطبقة الوسطى
الصغيرة .

٤ . بداية ونهاية : الشخصية الرئيسية في هذه القصة طالب ثانوي اسمه
حسنين كامل . توفي والده في بداية القصة بعمد أن كان موظفا بموزارة المعارف خدم

حوالي ثلاثين عاما بمرتب قدره سبعة عشر جنيها ، وترك معاشا لورثته يبلغ خمسة جنيها . ويتميز حسنين بتطلع طبقي هديد . وقد أصبح في نهاية القصة ضابطا في الجيش . ولكن ذلك لم يكفل رفعه وعائلته من مستوى الطبقة الوسطى الصغيرة لأن نهايته كانت سريعة ومفجعة . وحسين أخوه كان طالبا ثانويا ثم صار ، بعد حصوله على البكالوريا ، كاتباً بمدرسة طنطا الثانوية بمرتب يبلغ سبعة جنيها . ورغم توقعه عن متابعة دراسته نرى أنه كان أكثر رهيا وتفهما لمشكلته ومشكلة عائلته من أخيه حسنين . أما الأخ الثالث حسن فكان يتاجر بالمخدرات ويغني ويمارك ، ولا نرى عنده طموح أبناء الطبقة الوسطى . واضطرت الأخت الوحيدة نفيسة لأن تعمل خياطة بعد وفاة الوالد .

وفي القصة مفتش كبير من الطبقة العليا كان صديقا للوالد ، و موظف حكومي متوسط هو فريد افندي محمد تربطه وعائلته بعائلة كامل علي أكثر من رابطة .

٥ . السراب : الشخصية الرئيسية في هذه القصة موظف صغير مرتبه سبعة جنيهاً ونصف يحمل البكالوريا اسمه كامل رؤية لظ . ويشغله تعلقه بأمه وخجله الشديد وعقدة وما ورثه من مال عن جده وأبيه عن التطلع الى أعلى ، والقلق الشديد من الهبوط الى أسفل . جده ضابط متقاعد وأبوه من الأعيان . تزوج مدرسة متخرجة من دار المعلمين ابنة مفتش ري بالأشغال . وفي القصة طبيب يدعى أمين رضا قريب عائلة زوجة كامل .

٦ . الثلاثية : تقوم بدور البطولة في هذه القصة عائلة أحمد عبد الجواد التاجر الصغير المكتفي والذي لا يكاد يبلغ من حيث دخله أو واسط الطبقة الوسطى ولكن معارفه و صداقاته وما يحظى به من احترام وتقدير تجعله يجاوز تلك المرتبة . تلقى ابنه كمال ثقافة جامعية . ولكن اختياره لدار المعلمين أدى به لأن ينتهي مدرسا

ابتدائيا وكاتبها مفكرا لا يحظى بكثير من التقدير في بيئته ، فلم يتمتع مرتبة والسند الاجتماعي وربما لم يصلها . ولم يتلق ابنه الآخر ياسين سوى ثقافة ابتدائية ، فعمل كاتباً ، وكانت مرتبته الاجتماعية أقل من مرتبة أبيه . وتشغل ياسين قضية المعاش ، ولكنه لا يبذل جهداً وشديداً الاهتمام بوضعه الطبقي . أما الآن الثالث فهمي فكان طالب حقوق ، ولكن القدر لم يمهله فقتل في مطلع شبابه .

ونقابل في القصة أصدقاء الأب من التجار . وأصدقاء كمال من الطبقة المنتهية الى الطبقة العليا . كما تتزوج ابنتا احمد اللتان لم تتلقيا أية ثقافة من رجلين من آل شوكت الأسرة الأرستقراطية سابقا والتي تعد الآن متوسطة الحال من حيث الدخل ، ولكنها تحافظ على عادات الأرستقراطية وتقاليدها .

أما أحفاد أحمد عبد الجواد فطالبان حزبيان ، وثالث شان جنسيا ضمن له شذوذه أن يعين سكرتيرا للوزير عقب تخرجه من الجامعة .

و يلفت نظرنا في القصة فؤاد الحمزاوي الذي كان والده يعمل في دكان أحمد عبد الجواد . وقد تدخل فؤاد الحقوق ، وصار بعد تخرجه مساعد نيابة ثم وكيل نيابة ، فتعدى طبقة والده السفلى الى أعالي الطبقة الوسطى .

ويتضح مما تقدم أن الأدوار الرئيسية في قصص محفوظ مقصورة على أبناء الطبقة الوسطى ولا سيما الصغيرة منها . ويمكننا تصنيف هؤلاء الى الفئات التالية ،

- ١ . طلاب : محبوب عبد الدائم ، مأمون رضوان ، علي طه ، حسنين كامل حسين كامل ، كمال عبد الجواد ، فهمي عبد الجواد ، احمد شوكت ، عبد المنعم شوكت .
- ٢ . موظفو الحكومة : احمد عاكف ، حسين كامل ، كامل رؤمة لاط ، كمال عبد الجواد ، ياسين عبد الجواد .

٣ . تجار: احمد عبد الجواد ، سليم علوان .

٤ . موظف شركات غير حكومية: رشدي عاكف .

كذلك فان غالبية شخصيات هذه القصص الثانوية هم من الطبقة الوسطى الصغيرة . وينتمي معظمهم الى الفئات الأربع السابقة وبينهم عدد ضئيل من أصحاب المهن الحرة (طبيب، ومحام، وصحفي، وكاتب) . ولا نرى في هذه القصص أي أثر لرجال الصناعة . ويتفق اهتمام محفوظ بمشكلات قطاعات التجار وصغار الموظفين والطلاب مع ما ذكره كل من بيرغر والساعاتي من أن هذه الفئات كانت تشكل نسبة كبيرة من الطبقة الوسطى المصرية . كذلك تشكل هذه الفئات العمود الفقري لما يسميه راشد البراي الطبقة الوسطى الجديدة .

* وتلمع الطبقة الدنيا دورا شبه رئيسي في زقاق المدق فقط . أما الطبقة العليا فأدوارها ثانوية فقط .

* ويبدو من قصص محفوظ أن الوظيفة الحكومية كانت تحظى بالتقدير والاحترام في ذلك الدور الذي تتحدث عنه . ويخبرنا المؤلف أن أحمد عبد الجواد وأصدقائه من التجار كانوا يتطلعون الى الموظفين و ذوي الألقاب بنظرة ملؤها الاكبار^١ . ونرى احمد هذا يبحث ابنة كمال على السمي وراء الوظيفة نظرا لما تنطوي عليه من مركز ونفوذ اجتماعيين^٢ . . . ألا تدري ما هي النيابة وما هو القضاء؟ هذه وظائف تهز الأرض هزا وفي وسعك أن تتبوا واحدة منها^٣ . ولم يعد عبد الجواد أي من أبنائه ليحل محله في متجره لأنه كان في الحق يكبر الوظيفة والموظفين ويدرك خطرهم ومنزلتهم

١ . نجيب محفوظ، بين القصرين (القاهرة: دار مصر للطباعة، لات)، ص ٣٧٦ .

٢ . نجيب محفوظ، قصر الشوق (القاهرة: دار مصر للطباعة، لات)، ص ٦٢ .

في الحياة العامة كما لمس ذلك بنفسه . . . كذلك لم يكن يخفى عليه أن التجارة لا تحظى ببربح ما تحظى به الوظيفة من التقدير في نظر الناس وان أخلفت أضعافها من المال . . . ١* ويخبرنا المؤلف أيضا أن أولاد سليم علوان أعرضوا عن التجارة "وشقوا سبيلهم الى الحقوق والطب، فهم قاض و محام بأقلام القضايا و طبيب بقصر العيني" ٢. أي أنهم اختاروا جميعا العمل بالحكومة. كذلك نلاحظ أن تسلم فؤاد الحمزاوي لوظيفة مساعد نيابة ثم وكيل نيابة كان كفيلا برفع مرتبته الاجتماعية كثيرا . وأن تسلم سالم الاخشيدي لوظيفة سكرتير الوزير ثم مساعده جملته واحدا من أبناء الطبقة الارستقراطية العليا . وتمود أهمية الوظيفة في المجتمعات النامية بنوع خاص الى وجود علاقة وثيقة في هذه البلدان بين السلطتين السياسية والاقتصادية . وقد أوضح بيرغر هذه العلاقة في كتابه عن البيروقراطية في مصر، فأشار الى أن قوة الطبقات الاقتصادية العليا في مصر لم تكن قوة خاصة ، بل مستقاة من علاقة هذه الطبقات بأصحاب السلطة السياسية . ذلك ان الحكومة هي المصدر الرئيسي لأية قوة اجتماعية منظمة و ليس لأية طبقة القدرة على ممارسة أية سلطة خارجها ٣.

وهكذا يمكننا اعتبار درجة الوظيفة الحكومية المقياس الأول الذي كان يحدد طبقة الفرد الاجتماعية في ذلك الدور ، وأن الاقتراب من مركز السلطة السياسية أو الاعتماد عنه كان يلعب الدور الرئيسي في ذلك التحديد .

١ . نفسه ، ص ٦٣ .

٢ . نجيب محفوظ، زقاق المدق (القاهرة: دار مصر للطباعة، لات) ص ٦٦ .

٣ . Morroe Berger, Bureaucracy and Society in Modern Egypt (Princeton: Princeton University Press, 1957) P. 15.

أما المقياس الثاني فهو الثروة التي كانت تمكن الفرد من شراء الألقاب أو المقعد النيابي ، وتقربه بالتالي من مركز السلطة السياسية . وهكذا يقترح أحد أبناء سليم علوان على أبيه أن يسعى للحصول على مرتبة البكوية : " كيف لا تكون بيكا والبلد ملأى ببيكوات وباشوات دونك ما لا وجاها ومقاماً "١ . كما أن ثروة علوان هذا أتاحت له أن يفكر بترشيح نفسه للنيابة . وثروة عبد الحميد شداد المضارب بالبورصة في الثلاثية مكنته من التقرب من ذوي السلطان .

والمقياس الثالث هو العلم الذي يؤدي الى الوظيفة الحكومية الجيدة والذي أتاح لفؤاد الحمزاوي في الثلاثية أن يصبح وكيل نيابة .

وعلى أساس هذه المقاييس يمكننا تقسيم شخصيات محفوظ المختلفة الى خمس طبقات .

١ . الطبقة العليا : وتضم أحمد افندي حمديس المهندس السابق في القاهرة الجديدة . وسالم الاخشيدي سكرتير الوزير في القصة ذاتها . واحمد بك يسري المفتش الشرطي في بداية ونهاية . وعبد الحميد شداد المضارب بالبورصة في الثلاثية . ومحجوب عبد الدائم بعد تعيينه سكرتيراً للوزير . ورضوان ياسمين بعد تعيينه سكرتيراً للوزير .

٢ . الطبقة الوسطى العليا : وتضم سليم علوان التاجر الثري في زقاق المدق ، وفؤاد الحمزاوي وكيل النيابة في الثلاثية .

٣ . اواسط الطبقة الوسطى : وتضم احمد عبد الجواد التاجر المتوسط الحال في الثلاثية ، وآل شوكت ذوي الدخل المتوسط في القصة ذاتها . وعلى طه ومأمون رضوان الطالبين في القاهرة الجديدة . ورضوان الحسيني الرجل التقى الذي يملك بيتاً وبعض الأرض في زقاق المدق .

١ . زقاق المدق ، ص ٢١ .

٤ . الطبقة الوسطى الصغيرة : وتضم صفار الموظفين : أحمد عاكف، ورشدي عاكف، وكمال افندي خليل ، وسيد افندي عارف، وسليمان عتة في خان الخليلي . والسيد درويش قبل أن يترك الوظيفة في زقاق المدق . وحسين كامل بعد توظيفه ، وفريد افندي محمد ، في بداية ونهاية . وكامل رؤسة لاط، وجبر بك السيد ، ورباب جبر، في السراب، وكمال عبد الجواد بعد توظيفه ، وباسين عبد الجواد ، ورياض قلندس، وسوسن حماد المحررة، في الثلاثية . والطلاب أمثال : محبوب عبد الدائم ، واحسان شحاته ، في القاهرة الجديدة ، وحسين كامل ، وحسين كامل في بداية ونهاية . وكمال عبد الجواد قبل توظيفه ، وفهمي عبد الجواد ، في الثلاثية . كما يمكننا أن نضع عباس العلو وحسين كرشة بعد عملهما مع الانكليز في هذه الطبقة .

٥ . الطبقة السفلى : وتضم أمثال نونو الخطاط، والمعلم زفتة ، في خان الخليلي . والمعلم كرشة ، والسيد درويش بعد تركه الوظيفة ، وجعدة الفسران ، وزينة صانع الماهات ، وعم كامل بائع البسبوسة ، في زقاق المدق . ويؤكد هذا التقسيم ما ذهبنا اليه سابقا من أن شخصيات محفوظ الرئيسية تنتمي الى الطبقة الوسطى ولا سيما الصغيرة منها . وهكذا يمكننا ترتيب هذه الطبقات من حيث بروز دورها في قصص محفوظ الواقعية كما يلي :

- ١ . الطبقة الوسطى الصغيرة .
- ٢ . اواسط الطبقة الوسطى .
- ٣ . الطبقة الوسطى العليا .
- ٤ . الطبقة السفلى .
- ٥ . الطبقة العليا .

وبعد ، فقد حاولت في هذا الفصل أن أعرض تطور الطبقة الوسطى المصرية منذ نشأتها وحتى الأربعينات من هذا القرن ، مشيراً إلى تركيبها في فترات تطورها المختلفة ، وممتداً في ذلك كله على المراجع القليلة التي تفرصت لهذا الموضوع . وقد ذهب محمد أنيس إلى أنه وجدت في عهد المماليك طبقة وسطى مكونة من المشايخ ورجال الدين من جهة ومن التجار والحرفيين من جهة أخرى ، وأن محمد علي أطاح بهذه القوة الناهضة التي ساعدته على تثبيت حكمه ، ولكن إصلاحاته أدت إلى بروز طبقة وسطى جديدة نشأت من الزراعة وتضخمت قوتها في عهد الاحتلال الانكليزي . ويؤكد مختلف الباحثين أن قطاعات الطبقة الوسطى الأخرى مثل الموظفين والتجار والصناع لم تبرز على المسرح بشكل قوي إلا بعد ثورة ١٩١٩ والتطورات التي أعقبتها وحدث من منافسة الأجانب لهذه القطاعات . ويذهب كل من حسن الساعاتي ومورو بيرغر إلى أن الطبقة الوسطى المصرية القاطنة في المدن كانت تشكل في الأربعينات من هذا القرن حوالي ١٠٪ من مجموع السكان . وأن حوالي نصف هذه الطبقة كانوا من صغار التجار . كما يذهب راشد البراي إلى أن الموظفين والطلاب كانوا يشكلون نسبة هامة من هذه الطبقة .

ثم انتقلت إلى تبين تركيب هذه الطبقة في قصص محفوظ فرأيت أنها تلمسب الأدار الرئيسية في تلك القصص وأن فئات ثلاث منها تتقاسم هذه الأدار هي : التجار وصغار الموظفين والطلاب ، وتنتمي غالبية هؤلاء إلى أسفل هذه الطبقة . وقد اتفق اهتمام محفوظ بهذه الفئات مع ما ذكره الباحثون من أنها كانت تشكل قسماً هاماً من الطبقة الوسطى المصرية . كما وجدت أن المقاييس التي تحدد مرتبة الفرد الاجتماعية هي : درجة الوظيفة الحكومية والثروة والعلم . وقد قسمت شخصيات محفوظ المختلفة إلى خمس طبقات استناداً إلى هذه المقاييس .

الفصل الثاني

المشكلات الاجتماعية

يرى شارل عيساهي أن المجتمع المصري كان ، قبل الحرب الأخيرة ، أشبه ما يكون بهرم واقف على رأسه . ولكنه استمر في وضعه المقلقل هذا طويلا بحيث صار مطمورا في الرمل ، وهكذا تمتع بنوع من الثبات . كما أن التفحص الأدق كان يبي أن ذلك الهرم بقي في وضعه ذاك بفعل دعائم قوية ، وأن رأسه قد تماسك بفعل مادة شادة قوية . وكان ملاك الأرض يقفون على رأس البناء ويملكون جزءا كبيرا من ثروة البلد ، ويتمتعون بمركز سياسي كبير . ولم تتحد هذه السيطرة سوى جماعتين كانتا في وضع يسمح لهما بذلك هما طبقة المهنين وطبقة الصناعيين والتجار . ولا تأتي سوى أقلية من أعالي طبقة المهنين من طبقة ملاك الأراضي ، أما الباقون فيأتون من البرجوازية الصغيرة على الأغلب . ويسارع مثل هؤلاء الملاك ابراز تمتعهم بالحبوحة عن طريق شراء قطعة أرض أو عريضة ، ومصارعة طبقة الملاك والاختلاط بها اجتماعيا وسياسيا . كذلك كانت طبقة الصناعيين والتجار عاجزة عن لعب دور نشيط ومستقل بسبب سيطرة الأجانب من جهة ، وخشيتها من أن تؤدي أية حركة اصلاحية تبدأ بها الى مضاعفات اجتماعية عنيفة ، وميل الملاك المتزايد الى تشغيل أموالهم في المشروعات الصناعية وغيرها من جهة أخرى . ويضيف عيساهي أنه كانت تحمي طبقة الملاك أربع فئات اجتماعية قوية هي الجيش والبوليس التام للنظام القائم آنذاك ، وقوة بوليس ممتازة لا شك بولائها ، وبيروقراطية كبيرة تتسع بسرعة وتتمتع باعتبار اجتماعي . وأخيرا العلماء المنتشرون في المدن والقرى المصرية يمارسون نفوذا عظيما بطريقة مباشرة أو من خلال الطرق الدينية ، ولا يكون أية رغبة في تغيير النظام القائم . أما القوة الشادة للبناء فكانت النفوذ العظيم

والشعبية الكبيرة للملكية التي كانت تشكل إحدى القوى الأكر محافظة في مصر^١. ومع أن المجتمع المصري اُتسم بالبرونة والتجانس التراثي بين سائر الطبقات كما يقول عيساوي^٢، إلا أن البرجوازية الصغيرة لم تكن في وضع يسمح لها بالتحرك اجتماعيا نحو تحسين أوضاعها بسبب سيطرة طبقة الملاك ومن تحالف معها، والفوارق الشاسعة في مستوى المعيشة بين هذه الطبقة والطبقات الصغيرة^٣.

ويشير صفران إلى الاثر الاجتماعي للهجرة المتزايدة من القرى إلى المدن في فترة ما بين الحربين وما كانت تنطوي عليه من الاجتثاث الاجتماعي والنفسي لأقسام كبيرة من السكان بابتعادها عن ضوابط المجتمع القروي المحكم النسيج. وهكذا حل السمي وراء اللذائذ ومفريات المدينة والوسائل الموصلة اليها محل القيم في غياب الحياة الجماعية والقيود الخلقية والاجتماعية. وصارت الخيبة التي يلاقيها ذلك السمي مصدر تدمير خطير. كما يتحدث عن اخفاق نظام التعليم في غرس

Issawi, Egypt at Mid-Century, PP. 258-260.

• ١

Charles Issawi, Egypt: An Economic and Social Analysis (London: Oxford University Press, 1947), P. 147.

• ٢

• ٣ يرى ناداف صفران أنه "لا يعني تقريبا لتقسيم المجتمع المصري إلى فئات متعددة من حيث الصراعات الأساسية للمصالح الاجتماعية والاقتصادية والقوى المحددة للسياسة الاجتماعية الاقتصادية. وهكذا فإن التقسيم الوحيد المناسب في هذا المجال هو ذلك الواقع بين مصالح الجماعات صاحبة الامتيازات من جهة والمصالح الجديدة لجماهير الشعب غير المتمتع بالامتيازات من جهة أخرى".

Egypt in Search of Political Community (Cambridge: Harvard University Press, 1961), P. 194.

مبادئ* مرشدة للسلوك الشخصي ، وكيف أن ذلك ترك الأجيال الطالعة من الطبقات الوسطى في فراغ خلقي وروحي ملأته بالانتهازية والسمي القهري ورا* المذات بعد اهتزاز السلطة الأبوية وضمف السلطة الدينية ، وتقوض سلطة المجتمع نتيجة تفجير التركيب الاجتماعي ١ .

و هكذا فقد تميز الوضع الاجتماعي في مصر في الفترة التي تناولها محفوظ في قصصه الواقعية بالأمور التالية :

١ . تفاوت شديد بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا ، وسيطرة طبقة المـبـلاك .

٢ . مرونة اجتماعية تتيج للفرد أن يتخطى طبقته الى طبقة أعلى ، ولكن المجال لم يكن واسعا أمام البرجوازية الصغيرة للافادة من هذا الوضع بسبب أحوالها المعيشية السيئة .

٣ . قلق اجتماعي نتيجة الهجرة الى المدن ، وعجز نظام التعليم والاصطدام بالحضارة الغربية ذات القيم الجديدة على المجتمع المصري ، وتغير التركيب الاجتماعي .
فما هي انعكاسات ذلك الوضع في قصص محفوظ وما هو تأثيره على الطبقة الوسطى بالذات كما يبدو في تلك القصص؟

١ . نفسه ، ص ١٨٢ و ٣٠٨ .

قابلية التحرك الاجتماعي Social Mobility - الموائق والحلول

* لعل أهم ما يميز الطبقة الوسطى عن غيرها من طبقات المجتمع هو عدم رضاها بمركزها الاجتماعي ، وسميها الدائب من جهة للصعود الى طبقة أعلى ، وخوفها ، من جهة أخرى ، من السقوط الى طبقة أدنى ، وما ينطوي عليه ذلك كله من قلق وحساسية طبقية . فالطبقة العليا لا يقلقها الصعود لأنها تقف في أعلى السلم الطبقي ، كما أن الطبقة السفلى تكون عادة راضية بقسمتها أو غير واعية لوضعها الاجتماعي . وهكذا فإننا نرى باحثا هو هنري غريسون يعتبر أن الخاصية الأساسية التي تجعل انسانا ما عضوا في الطبقة الوسطى إنما هي تصميم ذلك الانسان على التحرك الى وضع أفضل في السلم الاجتماعي وليس مرتبته الاجتماعية الفعلية^١ . كذلك يرى باحث آخر هو أليينور باركر وجود رابطة وثيقة بين طريقة حياة البرجوازية ككسـل والاختلافات والتفيرات داخلها ، وبين مواقف البرجوازية من قابلية التحرك الاجتماعي ، وأن جميع البرجوازيين تقريبا سموا وراء رموز حياة النبلاء ، ونحو ترك طريقة حياتهم البرجوازية وطرح السمة البرجوازية جانبا^٢ .

وقضية التحرك الاجتماعي هي المشكلة الأساسية التي تواجه أبطال قصص محفوظ . وهي تتخذ أشكالا مختلفة عندهم ، كما أنهم يواجهون آثارها بطرق متعددة . ويشير الكاتب الى أهم الموائق التي كانت تحول بين أبناء الطبقة الوسطى وبين تحسين أحوالهم والارتقاء اجتماعيا في ذلك الدور الذي نتحدث عنه هذه القصص .

١ Henry Grayson, The Crisis of the Middle Class (New York: Rinebart and Comp. Incorporation, 1955), P. XI-Introduction.

٢ Eliot Barber, The Bourgeoisie in 18th C. France (Princeton: Princeton University Press, 1955), P. 98.

وأول هذه العوائق الفقر الذي حال دون اتمام كل من أحمد عاكف في خان الخليلي وحسين كامل في بداية ونهاية لدراستهما. وثانيها الوساطات واستثناء طبقته واحدة بكل مناصب الحكومة. يقول محبوب عبد الدائم في القاهرة الجديدة،

... والحكومة أسرة واحدة. الوزراء يعينون الوكلاء من الأقارب. الوكلاء يختارون المديرين من الأقارب: والمديرون ينتخبون الرؤساء من الأقارب. الرؤساء يختارون الموظفين من الأقارب. حتى الخدم يختارون من خدم البيوت الكبيرة. فالحكومة أسرة واحدة أو طبقة واحدة متعددة الأسر...^١

ونسمع فؤاد الحمزاوي الذي أتاح له تعليمه أن يصبح مساعد نيابة يشكو مع ذلك من الوساطات... في الأسبوع الماضي عين مستشارا رجل لم يبلغ الأربعين من عمره، وقد أخذم القضاء عملي مجتهدا ناصبا دون أن أظفر بهذا المركز السامي^٢. كما نسمع حسين كامل في بداية ونهاية يشكو من الفوارق الطاغية بين الموظفين^٣. ويبدو أن هذه العوائق كانت تقف بشكل جدي ومؤثر في وجه أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة. لذلك فإن تجاوزهم لها لم يتأت إلا عن طرق ملتوية كالانحراف السياسي والخلقي (سالم الاخشيدي) والشذوذ الجنسي (رضوان ياسين). أما الحلول التي لجأوا اليها لمواجهة هذه العوائق فيمكن تصنيفها الى نوعين أساسيين: حلول فردية، و حلول اجتماعية.

١. نجيب محفوظ، القاهرة الجديدة (القاهرة: دار مصر للطباعة، لات)، ص ٤٦.

٢. نجيب محفوظ، السكرية (القاهرة: دار مصر للطباعة، لات)، ص ١١٨.

٣. نجيب محفوظ، بداية ونهاية (القاهرة: دار مصر للطباعة، لات)، ص ٣٠٦.

١ . الحلول الفردية : وهي حلول تلجأ اليها شخصيات محفوظ الرئيسية . وتشمل اللجوء الى الوساطات ومحاولة الزواج من الطبقة العليا ، والتقرب الى تلك الطبقة ، والمعاناة النفسية من المشكلة دون القيام بعمل ايجابي في سبيل ايجاد حل جذري للمشكلة الطبقيّة من الأساس . وقد يكون من المفيد في توضيح طبيعة هذه الحلول أن نتناول كل شخصية رئيسية من قصص محفوظ على حدة ، ونبين الطريقة التي اتبعتها في مواجهة معوقات التحرك الاجتماعي ومظاهر الظلم الاجتماعي التي عانت منها .

أ - محبوب عبد الدائم^١ بطل القاهرة الجديدة : طالب فقير يدرس في القاهرة بعيداً عن أسرته التي كانت تقيم في القناطر . كان لفقره "يرمق" ملائذ القاهرة من بعيد ، ويسترق السمع الى أخبارها بنهم وألم^٢ . وتفاقت مشكلة الفقر عندما مرض والده وأُحيل على المعاش . ولكن محبوب الذي استطاع أن يتجاوز هذه المشكلة بقبوله العيش بجنيه واحد في الشهر حتى نيله الليسانس ، كان يشكو من داء التطلع الطبقي الشديد . فقد جعلته مشاهدته للقصور على جانبي شارع رشاد باشا يقول لنفسه :^٣ "لو كان وريث أحد تلك القصور وأشفى أبوه - الباشا - على الموت لانتظر

١ . هنالك مجال واسع للمقارنة بين محبوب وأوجين دي رستيناك بطل قصة "الأب غوريو" لبلازاك . فكلاهما فقيران يدرسان في المدينة بعيداً عن عائلتيهما اللتين تعلقان عليهما آمالاً كبيرة . وكلاهما يتطلعان الى الطبقة العليا . وفي حين كانت واسطة محبوب للتقرب من تلك الطبقة سالم الاخشيدي ابن بلده ، كانت واسطة أوجين عمته السيدة دي مارسياك . وكلاهما يحضران حفلات ارسقراطية ويتمنيان لو كانا يمشيان حياة أفضل ويسعيان الى الوصول بأي ثمن ، ويتلقيان نصائح بطرح المبادئ جانباً في مجتمعين متشابهين من حيث اهتزاز القيم فيهما .

٢ . القاهرة الجديدة ، ص ٣٠ - ٣١ .

موته بفارغ الصبر...^١ كذلك فانه يتمرد على الأقدار التي جعلته من هو... تساءل وهو ينتفح حاجبه الأيسر لماذا قدر له أن يولد في ذلك البيت؟ وماذا ورث عن والديه سوى الهوان والفقر والدماثة؟ أليس من الظلم أن يرسف في هذه الأغلال قبل أن يرى النور؟^٢ وكون محجوب لنفسه فلسفة جمعها من حثالة الفلسفات اللاحادية السائدة في الجامعة تقوم على طرح جميع القيم من دينية وأخلاقية واجتماعية جانباً، وركز اهتمامه على "نفسه التي يحبها أكثر من الدنيا جميعاً"، والتي يحبها وحدها دون الدنيا جميعاً^٣، وجعل أسوته الحسنه ابليس الرمز الكامل للكمال المطلق والتمرد الحق والكبرياء الحق والطموح الحق والثورة على جميع المبادئ^٤. وكانت الطريقة التي اتبعها لتجاوز مشكلتي الفقر والاعتبار الاجتماعي بعد نياله الليسانس هي اللجوء الى الوساطات والاعتدال^٥ بسالم الاخشيدي ابن بلده - القناطر الذي "ظفر بوظيفته لأنه خائن، ورقي لأنه قواد"^٥ فاتخذته مثلاً أعلى وراح يتبع تعليماته. وعندما حضر حفلة خيرية أرستقراطية بناه على توجيهاته وشاهد الاخشيدي وعظمته "تنهد محجوب

١. نفسه، ص ٣٧.

٢. نفسه، ص ٤١.

٣. يشير هالبرن في حديثه عن الطبقة الوسطى الجديدة في الشرق الأوسط الى وجود الانتهازي الهائم بحرية الذي لا يمثل الا نفسه، ولكنه يمثلها بطريقة متعازة حيث لا ولاء له الا الولاء لفن البقاء بين صفوف هذه الطبقة. ويشير كذلك الى أن قصص ستندال تصف الانتهازي من هذا النوع بصورة جيدة في فترة مسون التاريخ الفرنسي حام فيها الشك حول المؤسسات والقيم وشابهت الفترة الحالية في تاريخ الشرق الأوسط.

The Politics of Social Change..., P. 53

٤. القاهرة الجديدة، ص ٣١.

٥. نفسه، ص ١١١.

ولو أمكنه - في تلك اللحظة - أن يصير عظيما ولو بجريمة ترمي به الى حبال الشنقة لما تردد! "١" وهكذا استحوذ التطلع الطبقي على مشاعره فقبل عرض الاخشيدي الزواج من عشيقة الوزير مقابل تعيينه سكرتيرا له . وكان قبوله بداية النهاية - للأساوية .

ب - أحمد عاكف بطل خان الخليلي : موظف صغير بوزارة الأشغال اضطرته ظروف عائلته لأن ينقطع عن متابعة دراسته بعد نيله البكالوريا ، وأن يتوقف بالتالي عند حد منخفض نسبيا في السلم الاجتماعي . فأصبحت آماله بطعنة قتالة دامية ترشح من هولها " واجتاحتها ثورة عنيفة جنونية حطمت كيانه ، فامتألت نفسه مرارة وكفلسدا . ووقر في أعماقه أنه شهيد مضطهد ، وعبقورية مقبورة ، وضحية مظلومة للحظ العاثر . . . وتلوثت عواطفه بتمرد ثائر وسخط خبيث وكبرياء حنق ، واعتداد كاذب بمواهبه ، مما جعل حياته عذابا متصلا وشقا مقيما "٢" . وهكذا فهو "لا يحب ذكر وظيفته ارضاء لكبريائه ، فكانت لحظات التعارف لحظات تمذيب "٣ بالنسبة اليه .

ولجأ أحمد الى طرق ملتوية لتحقيق ذاته وتعمدي مرتبته الاجتماعية . جرب العلم والاختراع والأدب والسحر دون أن يفلح في أي من هذه الحقول " وسقط تحت أنقاض المحاولات الفاشلة والآمال الخائبة والأوهام الضائعة ! واطرد مجسرى الأيام وتقدم به العمر وشعوره العميق بالظلم لا يسكن ولا يهدأ ، بل جعل يجد لألمه لذة غامضة "٤ . وعاش حياة - مأساة بعد أن عجز أيضا عن النجاح في الحب ،

١ . نفسه ، ص ٩٥ .

٢ . خان الخليلي ، ص ١٤ و ١٥ .

٣ . نفسه ، ص ٤٢ .

٤ . نفسه ، ص ٢١ .

ورفضت فتاة أحلامه انتظاره عشرة أعوام . ففكر بالحب وبالمرأة كما كفر بالدنيا جميعا ١ . ونراه عندما وقع في الحب مرة ثانية يستسلم لأحلام شيطانية مرعبة : " . . . تمنى في صمته غارة جنونية تقذف القاهرة بالحم فتدك مبانيها وتهلك بنيتها فلا يبقى منها الا خرائب وآثار ، وشخصان حيان لا غير ، هو وهي ! ٢ " لأن هذه الأحلام ربما كانت أمله الوحيد في تحقيق شيء من ذاته اذا اكتشف أهل الفتاة أنه — كما يقول هو لنفسه — " (في الأربعين كاتب بحفوفات الأشغال ، درجة ثامنة — فهو من المنسيين في الحكومة كما أنه من المنسيين في الدنيا — مرتب خمسة عشر جنيتها !) ٣ "

ج — حسنين بطل بداية ونهاية : يموت والده في بداية القصة وهو لا يزال طالبا ثانويا ، فتسوّء حال العائلة . وتظهر بذور التمرد على أوضاع المائلة الطبقة عند حسنين منذ البداية فهو — كما يخبرنا الكاتب — " كان حريصا على ألا تقع عين على القبر حفظا لكرامة الأسرة " ٤ . ونسمعه يقول لنفسه " . . . لا مقبرة ولا يحزنون . لماذا لم يبن والده مقبرة تليق بأُسرتنا ؟ " ٥ كما نسمعه يعلن " — لن تكون أختي خياطة ، كلا ، ولن أكون أخا لخياطة " ٦ . وهو يتساءل كمحجوب " — هل يثير موت رجل كأحمد بك حزنا في نفوس ورثته ؟ " ٧ ويرفض أن يستسلم للأقدار : " . . . ان من يستسلم للأقدار

١ . نفسه ، ص ٣٨ .

٢ . نفسه ، ص ٩٦ — ١٠٠ .

٣ . نفسه ، ص ١٤٦ .

٤ . بداية ونهاية ، ص ١٤ .

٥ . نفسه

٦ . نفسه ، ص ٢٤ .

٧ . نفسه ، ص ١٨١ .

يشجعها على التمادي في طغيانها !^١ " ويناقش ربه الحساب ، متسا ئلا - فيما يشبه التحدي - عن أسرار حكته التي جعلت من الدنيا ما هو كائن !^٢

وبعد تخرجه التحق حسنين بالحربية " مدفوعا بنفسه الظمأى الى السيادة والقوة والمظهر الخلاب^٣ و تفاقم تطلعه الطبقي وحسا سيته الشديدة الناتجة عن شموه بالنقص الاجتماعي عندما أصبح ضابطا ، فترك خطيبته الأولى ، وانتقل بمائلته الى حي جديد وسمى الى الزواج من كريمة أحمد بك يسري أملا في أن يبلغ طبقة والدها العالية ،

... ما أجمل أن أملك هذه الفيلا وأنام فوق هذه الفتاة " . ليست شهوة فحسب ولكنها قوة وعزة . فتاة مجد تتجرد من ثيابها وترقد بين يدي في تسليم مسيلة الجفون وكأن كل عضو من جسدها الساخن يهتف بي قائلا " سيدي ... هذه هي الحياة . اذا ركبته ركبت طبقة بأسرها !^٤

و لكنه أخفق في سعيه ، وتوالت المحن عليه ، وانتهى منتحرا قبل أن يحقق أيا من آماله ، وبعد أن عجز عن التخلص من ماضيه ،

" طالما أحببت أن أمحو الماضي ، ولكن الماضي التهم الحاضر ، ولم يكن الماضي المخيف الا نفسي . لماذا لا أواصل الحياة بهذه الأعباء ؟ لا أستطيع . كان ينبغي أن أحب الحياة الى النهاية ، ومهما يكن من أمر ، ولكن في طبيعتنا خطأ جوهري لا أدريه . لقد قضي عليه ...^٥

١ . نفسه ، ص ٣٠ .

٢ . نفسه ، ص ٢٥٧ .

٣ . نفسه ، ص ٣٣٤ .

٤ . نفسه ، ص ٢٤٥ .

٥ . نفسه ، ص ٣٨١ .

د - كمال عبد الجواد - بطل الثلاثية : لا تشغل كمال مشكلة التحرك الاجتماعي الى طبقة أعلى في البداية على الأقل . فهو قد اختار دار المعلمين دون الحقوق - رغم تحذيرات والده من أن مهنة التعليم مهنة "يختلط فيها الأجنبي بالجوار ، غالية من كل معاني العظمة والجلال" ١ - . سعيا وراء ثقافة الفكر وأقنع نفسه بأنه لا يريد الزواج من عايدة شداد المنتمية الى طبقة أعلى من طبقته ، لأنه يسعى الى الحسب الأبدى . ولكن حلول كمال الصالية هذه لمشكلة الفوارق الطبقية لم تصمد كثيرا فنراه يكذب أمام أصدقائه الارستقراطيين معلنا أن أباه تاجر جملة بالبقالة ٢ . ونسمعه يوصي ابن أخته أحمد - ولكن ينبغي أن تعلم أن الحقوق تفتح لك مجالا من الحياة العملية المتنازلة لا تستطيعه الآداب . سيكون مستقبلك اذا اخترت الآداب في التعليم وهو مهنة شاقة ولا جأه لها . . . ٣ كما أنه يقف موقف الشك والتردد من زواج أحمد هذا من سوسن حماد الفتاة المنتمية الى الطبقة العاملة مسيرة لما سمع بالواقع الاجتماعي ٤ . وعندما يسمع بزواج بدور أخت عايدة التي تاق الى الزواج منها دون أن يفلح في اعلان رغبته نراه يتمنى أن يكون خطيبها من طبقة أدنى من طبقة المعلمين التي ينتمي هو اليها ٥ . وكأنه قد ندم على اختياره طريق الفكر فنراه كلما أقبل على ادارة مجلة الفكر " ذكره موضعها الأرضي المظلم ورثاة أثاثها بمكانة "الفكر" في بلده ،

١ . قصر الشوق ، ص ٥٥ .

٢ . نفسه ، ص ٣٥٠ .

٣ . السكرية ، ص ٢٩ .

٤ . نفسه ، ص ٣٢١ .

٥ . نفسه ، ص ٣٣٧ .

وبمكانته هو في مجتمعه . . * ١ فما وجد الا الخمرة ملاذا يخلصه من عذابه الناشئ*
من عجزه عن تحقيق ذاته في ظل المجتمع المريض،

كل شي* بيد ومضحكا ولكن الخمر ستظل قبلة المحزون، وتتغير
الاضاع فيملو قواد جميل الحمزاي ويسفل كمال أحمد عيسد
الجواد، ولكن الخمر ستظل بشاشة المكروب، ويوما يحمل كمال
رضوان على كتفه ليدلله ثم يجي* يوم فيحمل رضوان كمال ليقبله
من عثرته ولكن الخمر ستظل نجدة الملهوف. . . ٢

هذه الحلول الفردية التي كان يلجأ اليها أبطال قصص محفوظ والحلول
الأخرى المشابهة التي لبأت اليها بعض شخصياته الثانوية كانت كما لاحظنا تنتهي
دائما الى طريق مسدود . وكأنا أراد الكاتب، باصراره على ايصالها الى تلك
النهاية، أن يؤكد ادانته لها في الوقت الذي كان فيه يؤكد ايضا مسؤولية المجتمع
الذي لم يكن يتيح للفرد أن يحقق ذاته وأن يعيش حياة كريمة وذلك بسبب الفساد
وسيطرة طبقة صغيرة على السلطة واستئثارها بالمناصب وبثروة البلد، وتركها
جماهير الشعب الواسعة تعاني من الفقر وعدم التكافؤ في الفرص. وهكذا فإن
القضية، كما يطرحها الكاتب، ليست فقط قضية التحرك الطبقي ومعاناة الطبقة
الوسطى من الحواجز التي كانت تقف في وجه تقدمها الاجتماعي، بل هي أيضا قضية
مجتمع مريض لا تتحقق فيه العدالة الاجتماعية والمساواة والكفاية، ويكثر فيه بالتالي
الوصوليون والانتهازيون والمقعدون المنطوون على أنفسهم، ولا سيما بين الفئات
المثقفة المنتمية الى البرجوازية الصغيرة لأن وضع هذه الطبقة الانتقالي وهي أبنائها

١ . نفسه، ص ١٢٢ .

٢ . نفسه، ص ٢٥٦ .

وثقافتهم يجعلهم غير راضين عن الأوضاع الشاذة التي لا تتيح لهم التقدم^١ ومن ثم يبدؤون النضال^٣ ما على المستوى الفردي للخروج من الطبقة وهذه هي الانتهازية، واما على المستوى الاجتماعي وهذا هو الموقف الثوري^٢. وهكذا فان أبطال محفوظ ينطلقون من معاناة حادة في ظل وضع اجتماعي غير سليم ويشتركون جميعا في فهم ذلك الوضع. ولكنهم، بدل مواجهته بشجاعة، يختارون حلولا فردية لا تسؤدي الى نتيجة ايجابية، وهذا هو سر نهايتهم المأساوية. أما الحلول الاجتماعية فلا يختارها الا أشخاص لا يلعبون دورا رئيسيا في قصص محفوظ وهذا ما سنعالجه فيما يلي :

٢. الحلول الاجتماعية :

أشرنا من قبل الى أن محجوب استطاع أن يفهم حقيقة الأوضاع في مصر وسيطرة طبقة واحدة على الحكم والمراكز المالية في الدولة. ولكنه راح، مع ذلك، يحاول التسلق نحو الطبقة العليا متناسيا أن ذلك لا يحل مشكلة طبقته ولا مشكلة المجتمع المصري، ولكننا نجد الى جانب محجوب في القاهرة الجديدة شخصيتين أخريين هما علي طه ومأمون رضوان لم يعانيا مثل محجوب من مشكلة الفقر ومن عوائق التحسين الاجتماعي، ومع ذلك اختار كل منهما طريقا اجتماعيا يكفل حل مشكلة العدالة الاجتماعية من الأساس أعني الايمان بحاديء معينة والسمي الى تطبيقها في المجتمع.

١. يشير عبد المحسن طه بدر في كتابه : تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (١٨٧٠ - ١٩٣٨) الى أن طاهر لاشين يكشف في قصته هوا بلا آدم عن احساسه ببيأس الشقيين من أبناء الطبقة الوسطى الفقيرة الذين يحاولون شق طريقهم في الحياة بكفاحهم وعرقهم... ولكن الارستقراطية تقف حائلا بينهم وبين تحقيق طموحهم. كما يشير الى امتداد هذه المشكلة في اعمال نجيب محفوظ (ص ٢٦١ و ٢٦٣)

٢. احمد عباس صالح، "رد على نجيب محفوظ"، الكاتب، عدد ٦٠، مارس، ١٩٦٦، ص ٩٨.

فقد آمن علي طه بالعلم والاشتراكية، واتفق مع بعض زملائه على اصدار مجلة أسبوعية للدعوة الى اصلاح الاجتماعي . وآمن مأمون بالاسلام ومبادئه وضرورة تطبيقها في المجتمع.

وفي خان الخليلي عبر أحمد عاكف عن فهم لقضية المجتمع المصري ان راح يخاطب والدته قائلا : "... كذب الرجال محور هذه الحياة الجليلة التي تشاهدون آثارها في معترك الحكومة والبرلمان والمصانع والمعاهد ...^١ ومع ذلك نراه لا يختار حلا ثوريا لمشكلته ومشكلة المجتمع. ولكننا نجد في القصة شخصية أخرى هو المحامي أحمد راشد الذي يؤمن بالسبدا الشيوعي وبرسل المصر الحاضر: فرويسد وكارل ماركس وغيرهما ويبحث عن حل جذري للمشكلة.

أما الشخصية الثورية في بداية ونهاية فهو حسين الذي عانى من الظلم الاجتماعي أكثر من أخيه حسنين، ان اضطرت الظروف لأن يتوقف عن متابعة دراسته بمد البكالوريا . ومع ذلك نراه يقرن آلامه بآلام أسرته وآلام الناس، ويفهم الجانب الاجتماعي لمشكلته الخاصة "... لست فردا ولكنني أمة مظلومة، وهذا ما يولد في روح المقاومة ويعزيني بنوع من السعادة لا أدري كيف أسميه ...^٢ كما نراه يحلم بمجتمع جديد أفضل من المجتمع الذي يعيش بين أعضائه موقفا بين الاشتراكية والدين،

... كان في وحدته وضيقه يسعد بأحلام الاصلاح ويتخيل مجتمعا خيرا من المجتمع الذي يعيش بين أعضائه، وحالا خيرا من الحال المقدورة له، وأسعده الأمل في امكان تحقيق خياله دون الاعتدال^٣ على العقائد التي أشرب حبها والايان بها منذ طفولته^٣.

١. خان الخليلي، ص ٦٧.

٢. بداية ونهاية، ص ١٩٩.

٣. نفسه، ص ٣٠٢.

وأخيراً، نرى في الثلاثية شخصيتين اختارتا حلاً اجتماعياً لمشكلات مصر وهما أحمد شوكت وأخوه عبد المنعم شوكت. يؤمن الأول بمبادئ الحزب الشيوعي ويعمل على تحقيقها في مصر. أما الثاني فقد اختار العمل تحت لواء حركة الإخوان المسلمين. وتنتهي الثلاثية بعكس قصص محفوظ الأخرى نهاية باعثة على الأمل، إذ انحاز كمال في النهاية إلى صف أحمد وعبد المنعم، وآمن بالثورة الأبدية التي تعني "العمل الدائب على تحقيق إرادة الحياة مثلة في تطورها نحو المثل الأعلى...".^١ بعد أن تخلص من الشكوك التي أطاحت بكل معتقداته.

ويلاحظ أن معظم هذه الشخصيات الثورية التي اختارت الحل الاجتماعي لمشكلات المجتمع المصري في ذلك الدور لم تكن تعاني من تلك المشكلة بقدر الشخصيات التي اختارت الحلول الفردية. فعلى طه ومأمون رضوان في القاهرة الجديدة لم يكونا فقيرين كمحجوب وأحمد شوكت وعبد المنعم شوكت في الثلاثية لم تكن أحوالهما المعاشية سيئة. ولعل هذا يعني أن عوامل أخرى غير العامل الاقتصادي كانت تؤثر في اختيار الأفراد للطريق الاجتماعي، وأن هؤلاء الأفراد، كما يقول محفوظ نفسه، "تلقوا مبادئ الثورة عن طريق الثقافة المقلية لا المعاناة الطبقيّة"^٢.

موقف الطبقة الوسطى من الطبقات الاجتماعية الأخرى

كانت الطبقة العليا في الفترة التي نتحدث عنها قصص محفوظ مسيطرة على الحكم ومستأثرة به كما لاحظنا، ولم يشاركها فيه إلا أقلية من الطبقة الوسطى استطاعت

١. السكرية، ص ٣٩٢.

٢. نجيب محفوظ، "ملاحظات على المشكلة الميثافيزيقية"، الكاتب، عدد ٦٠، مارس

١٩٦٦، ص ١٢٢.

أن تتجاوز طبقتها الأصلية بالعلم أو الثروة أو الانحراف وهي الوسائط الثلاثة للتحرك الاجتماعي التي يمكن أن تستنتج من هذه القصص. ويصور محفوظ الطبقة العليا متعالية على الشعب، يائسة من إصلاح شأنه، راتعة في الفساد والزيغ والنفاق، وملوثة للجواساس في البلاد. نسمع في القاهرة الجديدة الحديث التالي بين جماعة من أبناء هذه الطبقة:

- . . أما مصر فيستطيع أي حاكم أن يستبد بها دون كبير خطر.
- الواقع أن أي نظام من أنظمة الحكم يستحيل دكتاتورية إذا طبق في مصر . .
- هذا وطن "ضربك شرف يا أفندينا" . . .
-
- لن تظفر مصر باستقلالها أبدا . . .
- استبدت بها عادة الحكم الأجنبي !
- وما حاجة مصر إلى الاستقلال ؟ . . . أما الزعماء فيتعاركون على الحكم، وأما الشعب فقير أهل للاستقلال .
- (و يسأل محبوب صاحب القول الأخير) :
- ألا يسروك أن تقول هذا القول عن قومك . . . !
- (فيجيبه هذا) — لا تجري في عروقي نقطة دم مصرية واحدة !
- (محبوب) — فما قولك في خطبة الباشا والدك في مجلس الشيوخ ، عند مناقشة الميزانية ، التي دافع بها عن الفلاح دافعا وطنيا مجيدا ؟ !
- (الآخر) — هذا في مجلس الشيوخ ، أما في البيت فكلانا متفق — أنا والسدي — على أن أنجح سياسة مع الفلاح هي : السوط !^١

أما شبان هذه الطبقة فليس بينهم "من يتحدث عن العروبة، ولا من يناقش في الاشتراكية أو أوجست كونت. و من بينهم جامعيون كثيرون، ولكنهم متأقلمون، فلا كلمة واحدة تذكر بحدائق الأورمان أو دار الطلبة." ١

لذلك كان من الطبيعي أن تكون الهوية واسعة بين هذه الطبقة وبين الطبقة الوسطى الصغيرة التي لم تكن تختلف كثيرا عن جماهير الشعب المصري من حيث وضعها الاقتصادي ومواقفها السياسية. وكان من الطبيعي أيضا أن يوجد نوع من الجفاء أو العداوة بين المستأثرين بالسلطة والوضع الاجتماعي والاقتصادي الأفضل، وبين المحرومين من كل ذلك ولا سيما الواعين لحرمانهم منهم. ولكننا نجد فرقا بسيما موقف أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة الذين اختاروا حلولا فردية لمشكلاتهم من الطبقة العليا وموقف الذين اختاروا حلا اجتماعيا لها. فالفريق الأول يحاول التقرب من الطبقة العليا ومصاهرتها والاختلاط بها سعيًا وراء بلوغ مرتبتها وان كان لا يخلو من عقد عليها وحسد لها (محجوب وعسنيين)، ولا يقوم بما من شأنه زعزعة سيطرتها، بل يشاركها الفساد والزيف إذا حظي بالنجاح وبلغ صفوفها (سالم الاخشيبي ومحجوب). أو يكتفي بانتقادها دون القيام بعمل ايجابي لتصحيح الأوضاع إذا لم يلاق النجاح (أحمد عاكف وكمال عبد الجواد). أما الفريق الثاني فان عداوته للطبقة العليا واضحة، وهو يسعى الى هدمها وهدم سيطرتها عن طريق العمل الحزبي المنظم او الدعوة الى مبادئ معينة (أحمد راشد وأحمد شوكت).

ويظهر من قصص محفوظ، مع ذلك، أنه وجد نوع من الاتصال بين الطبقتين العليا والوسطى أمنته القاربة أحيانا، وهكذا كان السيد محمد عفت في الثلاثية صلة الوصل بين جماعته الأصلية المكونة من تجار وبين من انضم اليها بمضي الزمن من موظفين

متنازين ، نظرا لما يربطه ببعض الشخصيات المصرية الهامة من صلات القربى ^١ . كذلك وجدت صداقات بين أفراد من الطبقتين (كامل علي وأحمد بك يسري في بداية ونهاية . وكمال عبد الجواد وحسين شداد في الثلاثية) . ولكن ذلك لم يكن يلغي الفواصل بين الطبقتين . فلا أحمد بك يسري قبل أن يزوج ابنته بهية من حسنين كامل علي ، ولا عايدة شداد قبلت الزواج من كمال . مما يؤكد النزعة المتعالية التي اتسمت بها الطبقة العليا ووجود هواجز اجتماعية قوية بين الطبقات .

أما الطبقة السفلى فيصورها محفوظ غارقة في بحر من الجهل والخرافات غير واعية لمشكلاتها ، ومعتمدة في مواجهة تلك المشكلات على قدرية سلبية "والمكتوب حتما تشوفه العين" ^٢ . ويمثل هذه الطبقة أحسن تمثيل نونو الخطاط في خان الخليلي الذي حمل شعار "ملعون أبو الدنيا" . ونسمعه يشرح فلسفته :

— اللهم احفظنا . الا أنه من الحكمة ألا نركب الهم أنفسنا . دع الهموم واضحك واعبد الله . الدنيا دنيا الله ، والفعل فعله ، والأمر أمره ، والنهاية له . فعلام التفكير والحزن ؟ ! . . ملعون أبو الدنيا ؟ ^٣

ومثل نونو الخطاط المملم زفته في القصة ذاتها الذي "يزدرد نصف درهم من الأفيون كل أربع ساعات ، ويمضي في عمله كالحالم لا يفيق أو بالأحرى لا يرغب أن يفيق" ^٣ .

ويبدو من قصص محفوظ أن الاتصال بين أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة وأبناء الطبقة السفلى كان موجودا . فنراهم مجتمعين معا في مجالس الحشيش في خان الخليلي

١ . بين القصرين ، ص ٣٧٦ .

٢ . خان الخليلي ، ص ٤٦ .

٣ . نفسه ، ص ٥٨ .

* لأن مشكلات الميش كانت مشتركة بينهم ، ولم تكن أحوال الطبقة الوسطى الصغيرة أفضل كثيرا من أحوال عامة الشعب . وقد تنبه الى هذه الحقيقة أبناء الطبقة الوسطى الثوريون فتبنوا حلولاً جذرية لهذه المشكلات المشتركة . أما الذين اختاروا طريق التطلع الطبقي والحلول الفردية فنراهم متكبرين أحيانا على أبناء الطبقة الدنيا . ففي حين يقبل أحمد شوكت دردن تردد على الزواج من سوسن حماد الآتية من الطبقة العاملة ، نرى كمال عبد الجواد يقف موقفا حذرا من ذلك الزواج . كما يعارض الزواج والدا أحمد لأسباب طبقية . وحسنين في بداية ونهاية لا يعجبه حضور أفراد من الطبقة الدنيا في جنازة والده ويعتبر غيابهم أشرف من حضورهم !

المائلة البرجوازية

* تواجه الطبقة الوسطى قلقها الاجتماعي الناشئ عن وضعها الوسطي المقلقل بتماسك عائلي تضحي معه المائلة ملاذا عاطفيا لأبناء هذه الطبقة . ويشير أليينور باريز في كتابه عن البرجوازية الفرنسية في القرن الثامن عشر الى هذه الحقيقة موضحا أن الحياة العائلية كان لها أهمية عاطفية أكبر بالنسبة للبرجوازية منها بالنسبة للنبلاء ، وأن التأكيد على أهمية المائلة والروابط العاطفية بين الآباء والأبناء كان واضحا في الدراما والفن على حد سواء في القرن الثامن عشر .

وفي قصص محفوظ بيد و التماسك العائلي واضحا في كافة قطاعات الطبقة الوسطى التي يعالج مشكلاتها . وأول ما يلتفت النظر بالنسبة لمائلة أحمد عبد الجواد السيطرة التامة التي لرب المائلة ، والقسوة البالغة التي يعامل بها زوجته فلا

١ . بداية ونهاية ، ص ١٣ .

Barber, The Bourgeoisie in 18th C. France, PP. 75-80.

يسمح لها بالخروج من البيت، كما لا يسمح لها بأبداً أية معارضة لـ "أنا رجل، الأمر الناهي"، لا أقبل على سلوكي أية ملاحظة، وما عليك إلا الطاعة، فحاذري أن تدفعيني إلى تأديبك"^١. وبمثل هذه القسوة يربي أولاده، ويتحكم بمصائرهم^٢ ولكن، برغم ذلك، نراه شديد العطف عليهم والحب لهم يتلطف على مساعدتهم واسعادهم فنتسمعه يخاطب نفسه بعد مقلبة مع ابنه ياسين،

... أحسبتني حقاً سخطت على تبذيرك لأنني كنت أرجو أن أزوجه بنقودك؟! ... خست. . . انما رجوت أن أجذك مقصداً كي أزوجه بنقودي على وفرة النقود لديك، هذا هو الرجا الذي خيستته. وهل حسبتني لم أفكر في اختيار زوجة لك إلا بعد ضبطك متلبساً بالزنا. . . كلا يا بفل اني افكر في سعادتك منذ توظفت، كيف لا وأنت أول من جعلني أباً. . . وأنت شريك في العذاب الذي أرسلتنا إياه أمك اللمينة؟! . . . ثم أليس من حقي أن افرح بك خصوصاً وأنه عليّ أن أنتظر طويلاً حتى أفرح بالثور الآخر أخيك أسير المشق ويا ترى من يعيش؟! . . .^٣

١. بين القصرين، ص ٩.

٢. يشير فالنتين بل في كتابه عن البرجوازية الروسية قبل القرن العشرين إلى أن طبقة التجار الروسية كانت تحكم بيوتها بقسوة فلا يتحدث رب العائلة إلى زوجته إلا بلغة الأمر، وينشأ الأولاد تحت ظل طفيان آبائهم الذين يختارون للابن المفضل الذي سيقوم به في حياته ويختارون للأبنة زوجها.

Valentine Bill, *The Forgotten Class - The Russian Bourgeoisie from the Earliest Beginnings to 1900* (New York: Frederick A. Prager Publishers, 1959), pp. 189.- 190.

٣. بين القصرين، ص ٣٢٦ - ٣٢٧.

ونراه شديد الحرص على كرامة خديجة ابنته " من يستهن بخديجة فكأنما استهان بشخصه ، ومن يمس كرامتها فكأنما طعمته في صميم كرامته " ١ ، كما نعلم أنه كان يتألم جدا كلما ذكر أنه منع فهمي ابنه الذي استشهد من أن يتزوج مريم جارتهم ليت كان صادقا اذن لأعفاه من عذاب يؤرقه كلما ذكر أنه وقف يوما عشرة فسي سبيل سعادة الفقيد أو كلما خطر بباله أنه ربما مات تعيس القلب أو ناقما عليه استبداده وتعنته ، تلك الآلام التي طالما نهشت قلبه ، هل يقدر ياسين أن يعفيه منها ؟ ٢

ويلاحظ ، من جهة أخرى ، أن أبناء أحمد عبد الجواد وزوجته يبادلونه الحب ويحترمونه جدا برغم معاملته القاسية لهم ، وأن الأخ الأصغر يحترم الأخ الأكبر ، وأن معاملة الأب لابنه تتغير بعد أن ينهي علومه فيعطيه حرية نسبية . وتحرص العائلة على أن تزوج بناتها مبتدئة بالأكبر سنا . كما تحرص على المحافظة على العرض ، وعدم التعرض لأعراض الجيران .

وتجدر الإشارة هنا الى أن ثورة كمال عبد الجواد على الأسرة : . . . لذلك أقترح - وظلام هذه الحجرة شهيد - أن تُلغى الأسرة - هذه الحفرة التي يتجمع فيها الماء الآسن - وأن تزول الأبوة والأمومة . . . ٣ لم تكن سوى جزء من أزمته النفسية والفكرية ، ولم تتعدّ النطاق النظري لأنه ، حتى بعد هذه الثورة ، كان لا يزال يزور الجامع مع والده كل يوم جمعة ، ويمثل دور المؤمن حتى تنتهي الزيارة رعاية لحقوق الأبوة واحتراما للناس ٤ . ولكن هذه الثورة قد تعبر ، في الوقت ذاته عن

-
- ١ . نفسه ، ص ١٧٧ .
 - ٢ . قصر الشوق ، ص ١٢٥ .
 - ٣ . نفسه ، ص ٤١٣ .
 - ٤ . نفسه ، ص ٤٥٤ .

معاناة كمال من القيود التي كان انتماؤه العائلي يفرضها على حريته الفردية والتي تمثلت في محاولة أبيه أن يفرض عليه اختيار كلية الحقوق ومحاكمته له لأنه نشر مقنالا في "البلاغ الاسبوعي" شرح فيه نظرية دارون في النشوء والارتقاء. ويتجلى في الحوار الذي دار بينهما في كلا الحالتين ظهور فجوة حضارية بين الأب والابن نشأت عن تبني الأخير لقيم جديدة تختلف عن قيم أبيه جاءت من مطالعته وتقوم على تقديس الفكر والسمي وراء الحقيقة. كذلك يمكننا تلمس مثل هذه الفجوة الحضارية في محاكمة أحمد عبد الجواد لابنه فهمي الذي اختار المشاركة في ثورة ١٩١٩ بالعمل الفعلي، وكانت المبادئ والقيم التي توجه فهمي في اختياره ذاك غريبة على الوالد الذي كان يقدم حب السلامة لنفسه ولعائلته على حب الوطن والجهاد من أجل قضيته.

وإذا كان أبناء أحمد عبد الجواد قد حاولوا أن يتحرروا من القيود السني كان يفرضها عليهم ولا وهم العائلي بحذر ومع مراعاة رأي الأب وحقوقه قدر الامكان، فان أحفاده تحرروا من تلك القيود تماما، وصار لهم الحق في تقرير مصيرهم دون أن يكون لوالديهم سوى حق التوجيه غير الملزم. وهكذا تزوج أحمد شوكت قبل أن ينال موافقة والديه، واشترك وأخيه في حزبين سياسيين ممنوعين برغم معارضة والدهما.

ولا نجد شبيها لأحمد عبد الجواد في قصص محفوظ الا رضوان الحسيني في زقاق المدق الذي يعامل زوجته بحزم، ويتصرف في بيته تصرفا مخالفا تماما لتصرفه مع الناس خارجه مثل أحمد. ويشير الكاتب الى السبب النفسي المحتمل لهذه الازدواجية، ولكنه يؤكد، في الوقت ذاته، الجانب الاجتماعي للمشكلة،

... ومن عجب أن يكون هذا الرجل - الذي طارصيته في الخير والحب والجود كل مطار - هازما حاسما وعلى فظاظه وحسره في بيته! ربما قيل انه وقد آيس من كل سلطان حقيقي في هذه

الدنيا يفرض سطوته على المخلوق الوحيد الذي يدعن لارادته ، ألا وهو زوجه ! . . . ولكن ينبغي ألا نسقط من حساب التقدير تقاليد الزمان والمكان ، وما تسنه البيئة لسياسة المرأة وفلسفتها ، وما تراه أكثرية أهل طبقته من وجوب معاملة المرأة كالطفل تحقيقاً لسمادتها هي نفسها قبل كل شيء^١ . . .

أما بقية عائلات الطبقة الوسطى التي تظهر في قصص محفوظ فليس فيها مثل هذا التشدد . ولكن الرابطة العائلية تبقى مهمة واضحة . ففي القاهرة الجديدة نرى محبوب دائم الذكر لوالديه برغم تخليه عن كل القيم وفي أسوأ ساعاته . يذكرهما عندما يقرر الزواج من عشيقه الوزير ،

. . . ثم ذكر في طريقه والديه ! . . . وانقبض صدره على رغبته وفرق . وتفصد جبينه عرقا . تمثلت له والدته التي تؤمن بأنه لا يخطئ^٢ أبداً ، وتمثل له والده ، الرجل الريفى ، بطيئته وتقواه وغيرته . انه يتزوج دون علمهما ، ولا يدري متى يعلمان ، ولكن هل يحتمل أن يعلما بالحقيقة ، لا فلسفته ولا أعصابه بمستطاعة أن تجعله يواجه مثل هذا التحدي ! . . . ان ذكرى والديه شبح مخيف فليطرده عن مخيلته . . .^٣

و يذكرهما عندما يتسلم أول مرتب . ويحاول محبوب أن يكفر بالأسرة . . . ما البنوة ؟ أليست عادة سخيصة لاحقة بظاهرة الأسرة ؟ بلى ، وسيكفر بهما كما كفر بأخوات لها من قبل . . .^٣ ولكنه لا يفلح في ذلك بل يظل يذكر والديه حتى

١ . زقاق المدق ، ص ٥٨ .

٢ . القاهرة الجديدة ، ص ١١٢ .

٣ . نفسه ، ص ١٦٥ .

النهاية. أما كفره بالزواج والمرض وغيرها من القيم المتعلقة بالأسرة فلم يحمره من المذاب والتمزق.

X و يحرس محفوظ على تأكيد أهمية الرابطة الأسرية بالنسبة للطبقة الوسطى عن طريق اظهارها من خلال أكثر شخصيات قصصه كقرا بالقيم مثل محبوب كما رأينا ، و مثل حسن في بداية ونهاية الذي يملنا الكاتب أن حب أسرته العاطفة الشريفة الوحيدة التي يخفق بها قلبه ! وأن النزاع بين ضروريات حياته وأنانيته من ناحية و حبه لأسرته من ناحية أخرى لا يهدأ بنفسه . ٢ ونرى في القصة ذاتها حرص الأسرة على تزويج فئاتها تأمينا لمستقبلها فنسمع الأم تخاطب ابنها حسين ،

لا يقلقني شيء في حياتي كما يقلقني مستقبل أختك نفيسة . أود لو أغمر عيني ثم أفتحهما فأجدها في بيت زوجها . ولكن كيف ؟ !
لسنا نملك لتجهيزها مليا ، وأخوف ما أخاف أن أموت قبل أن أطمئن عليها . أنتم رجال أما هي فمن الولايا اللاتي لا نصير لهن . ٣

ولعل تضحية حسين هذا من أجل أخيه حسنين وتضحية أحمد فاكف في خان الخليلي من أجل أخيه رشدي وتعلقه به برغم أنه استولى على قلب الفتاة التي كان أحمد يحبها من مظاهر هذه الرابطة الأسرية القوية . كذلك ربما كان تعلق كامل رؤية لظ المرضي بوالدته في السراب مرتبطا بهذا الأمر من معنى وجه .

١ . بداية ونهاية ، ص ١٤٤ — قارن بـ " غوريو " في قصة الأب غوريو لبلزاك

٢ . نفسه ، ص ١٧٤ .

٣ . نفسه ، ص ٢٢٢ .

* ولكن التماسك العائلي لا يقتصر على الطبقة الوسطى فيما يبدو. ففي زقاق المدق نلاحظ تعلق زوجة المعلم كرشة بابنها حسين بحيث "ترجو أن تستبقه حتى بعد زواجه حين يتزوج"^١. ونراها تفرح جدا عندما يعود الى الزقاق بمسد أن لم يعد له عمل مع الجيش البريطاني "عدت يا بني!.. الحمد لله... الحمد لله المني أثابك الى رشدك، وحماك من وسوسة الشيطان، أدخل بيتك (وضحكت في انفعال). أدخل يا غادر... لكم أقضضت مضجعي، وقطعت قلبي..."^٢ كذلك فان والده يفرح به وبزوجته ويرحب بهما في بيته برغم ما كان بينه وبين ابنه من خصام.

ومع ذلك يلاحظ أن عائلات الطبقة الوسطى صغيرة، ولا يحدث أن يتزوج أي من أبناء هذه الطبقة أكثر من زوجة واحدة في آن معا في قصص محفوظ. أما نونو الخطاط المنتسب الى الطبقة السفلى فقد تزوج أربع نساء وكان له أحد عشر ولدا منهن. وهو ينظر الى المرأة نظرة احتقار.

ويلاحظ أخيرا أن النساء في الطبقات العليا يعاملن على قدم المساواة مع الرجال. ولا تدلنا قصص محفوظ على مدى التماسك العائلي في عائلات هذه الطبقة.

دور المرأة البرجوازية في قصص محفوظ

من الأمور اللافتة للنظر في قصص محفوظ أن المرأة لا تلعب دور البطولة في أي من هذه القصص. كذلك لا نقابل إلا امرأة موظفة واحدة من الطبقة الوسطى هي

١. زقاق المدق، ص ١٢٠.

٢. نفسه، ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

رباب جبر المدرسة في السراب. ومع أن بنات أحمد عبد الجواد لا يخرجن من البيت، ولم يذهبن إلى المدرسة، ومع أن كامل علي لم يسمح لابنته نفيسة بأن تكمل علومها، إلا أن بعض بنات الطبقة الوسطى الأخريات مثل نوال خليل في خان الخليلي بدأن يذهبن إلى المدرسة، كما أن هنالك اشارات إلى أن البنات بدأن يدخلن الجامعة ويتوظفن. وهكذا بدأ المجتمع يتحول تدريجياً من مجتمع يسيطر فيه الرجال، ويقومون بكل الأعمال إلى مجتمع تشارك فيه المرأة الرجل في العمل. ولكن ذلك الأمر كان لا يزال في بدايته عندئذ فيما يبدو. وهكذا فأننا نرى أن الزواج ما يزال قبلة الفتيات. فهذه نوال خليل ذاتها تعد الزواج غايتها وليس العلم والعمل،

... ولكنها انضمت في الواقع إلى قافلة العلم، وليس العلم ما تنشد، ولا المدرسة بالماوى الذي يهفو إليه فؤادها، فأحلامها لا تفارق البيت، ولن تزال تعد أمها استاذتها الأولى تتلقى عنها فنون الحياة المنزلية من طهي و حياكة وتطريز، وما رأت في العلم يوماً إلا زينة تحلي بها أنوثتها و حلية تغلي من مهرها. فتركزت حياتها في هدف واحد: القلب أو البيت أو الزوج. أليس أول دعاة دعيت به "المروس"!... وأنه لأجل دعاة، وأنها لتتلف على أن تكونه، وترقب حظها في صبر ورجاء. ولذلك قدست الزواج قبل أهليتها له بدهر طويل، وأحببت "الرجل" وهو أمل مجهول وعاطفة غامضة. فكانت ثرة دانية القطوف ترصد من يجنيها!.

✽ ومثل نوال نفيسة في بداية ونهاية والتي تتجلى في سيرتها مأساة فتيات الطبقة الوسطى الصغيرة في ذلك الدور بأبشع صورها. تطمح إلى الزواج كشائر

بنات طبقتها ، ولكن دامت بها لا تسهل ذلك الأمر . ويموت والدها فيضاف بعدان
جديدان الى المشكلة : تدن في المرتبة الاجتماعية ، وضيق اقتصادي ،

... وحيدة ، وحيدة ، وحيدة ، في يأسى وألمي ، ثلاثة وعشرون
عاما ! ما أبشع هذا . لم يأت الزوج بالأس والدنيا دنيا
فكيف يأتي اليوم او غدا ؟ ! وهبه جاء راضيا بالزواج من خياطة
فمن عسى أن يقوم بنفقات الزواج ؟ لماذا أفكر في هذا ؟ لا
فائدة ، لا فائدة ، سوف أظل هكذا ما حييت .

وتجد نفيسة في سلمان البقال بعض أمل ينقذها من يأسها ، فتتقاد وراءه
وراء وعوده بالزواج منها . ولكنها لا تلبث أن تكتشف أن أملها لم يكن في محله
لأن سلمان تزوج من غيرها . وهكذا أدى عجزها عن تحقيق ذاتها بعد كسل
التنازلات التي أعطتها بقبولها فكرة الزواج من سلمان ذاته الى سقوطها واستسلامها
لرغبات جسدها وتحولها الى موسى .

ونفيسة ليست الفتاة الوحيدة التي تنتهي الى موسى في قصص محفوظ ، بل
هنالك فتاتان أخريان سلكتا الطريق ذاته هما احسان شحاته في القاهرة الجديدة
* وحميدة في زقاق المدق . ويبدو أن فقرهما وطموحهما الشديد أسهما بشكل
رئيسي في ايصالهما الى ما وصلتا اليه اذ كانتا في وصوليتهما لا تختلفان عن محجوب
أوسا لم الاخشيدي .

واذا كانت فتيات محفوظ مترددات في قبول الدور الجديد الذي يفرضه
عليهن علمهن وخروجهن الى المجتمع ، فتراهن متمسكات بهدف الزواج ، ومعرضات
عن الوظيفة . فان شخصيات محفوظ من الشبان الذين تبخوا حلولاً اجتماعية لمشكلات

المجتمع المصري آنذاك كانوا مدركين تمام الإدراك الدور المساوي لدور الرجل السني يجب أن تقوم به المرأة في المجتمع. فعلي طه في القاهرة الجديدة يرى أن المرأة شريكة الرجل في حياته " ولكنها شركة دعائها - في نظري - ينبغي أن تكون المساواة المطلقة في الحقوق والواجبات" ^١. ويرى في احسان شحاتة التي أحبها حبيبة، وزميلة، وندا محترما، ويريد أن يكونا عقلا واحدا وفنا واحدا ومهنة واحدة، فلا يحرم المجتمع عضوا نافعا مثلها، مع انها هي كانت تود لو تنقطع عن الدراسة وتزوج فلا تعمل الا في البيت ^٢. وأحمد راشد في خان الخليلي ينصح نوال خليل التي كانت تقدم الزواج على أي شيء آخر وتجمله هدفها الوحيد في الحياة بقوله،

... يخيل الي أنك لا تحبين العلم كما يجب وان لم ينقصك الاجتهاد أو حسن الفهم فأحبيه كما تحبين الحياة فهو منها بمثابة العقل من شخص الانسان، وينبغي أن يتغذى به عقلك ويتمثله كما يتغذى جسمك بالطعام ويتمثله. أين الشوق الى أسرار الوجود؟ ... أين اللهفة على المعرفة؟ ... لا يجوز أن يتخلف قلب المرأة عن قلب الرجل في طريق العرفان والمجهول ... ^٣

كذلك يؤمن أحمد شوكت بالمساواة بين الرجل والمرأة. ويدعو ابنة خالته نعيمة الى ابداء رأيها في فؤاد الحمزاوي الذي أراد أن يخطبها.

ولكن الذين رأوا الحل كامنا في العودة الى الاسلام لم يكونوا واضحين بالنسبة لدور المرأة في المجتمع. فالمرأة، في رأي مأمون رضوان "طمأنينة الدنيا،

١. القاهرة الجديدة، ص ٨.

٢. نفسه، ص ١٩ و ١٨.

٣. خان الخليلي، ص ١٣٩.

وسبيل وطبي* لطمأنينة الآخرة^١. و يكتفي عبد المنعم شوكت بالقول ان الاسلام سوى بين الرجل والمرأة.

أما الذين تبنوا حلولاً فردية لمشكلات المجتمع ومشكلاتهم الخاصة فكانوا غير معترفين للمرأة بدورها الجديد المساوي لدور الرجل. فمحبوب عبد الدائم يرى أن أحقر رجل بامرأتين^٢، ورشدي عاكف يرى أن المرغى والمرأة يلتهمان الشباب ويبددان الآمال^٣. ولا يختلفان عن الذين لم يحصلوا أية ثقافة مثل أحمد عبد الجواد أو حتى نونو الخطاط الذي يرى أن المرأة في الأصل عجيبة طرية، وعليك أن تشككها كما تشاء^٤. وانها "حيوان ناقص العقل والدين فكلها بأمرين، بالسياسة والعصا^٥". وهكذا لا تخلو تصرفات هذا الفريق الجنسية من شذوذه لأن العقائد والقيم الجديدة لم تلتف عندهم المشكلة الجنسية الناشئة عن عدم اعتراف المجتمع بأية علاقة بين الرجل والمرأة غير الزواج. فمحبوب "كان يرى حياته مليئة بالمشكلات، ويضع على رأسها جميعاً مشكلته الجنسية"^٥. وهكذا فهو لا يتورع عن معاشره جامعة أعقاب سجاثر، كما يحاول الاعتداء على ابنة قريبه التي رافقته الى الحفريات. ويأسين عبد الجواد لم يتورع عن محاولة الاعتداء على ضاربة رمل عوراء وجارية سوداء وخادمة مسنة. وليأسين هذا فلسفة خاصة حول الجنس والمرأة والزواج،

... فيم تطمح أية امرأة وراء البيت الزوجي والارتواء الجنسي؟ ... لا شيء! ... أنهن حيوانات أليفة كالحيوانات الأليفة ينبغى أن يعاملن، أجل لا يجوز للحيوانات الأليفة أن تتطفل على حياتنا

١. القاهرة الجديدة، ص ٧.

٢. نفسه، ص ٦٤.

٣. خان الخليلي، ص ٢٥٦.

٤. نفسه، ص ٤٨.

٥. القاهرة الجديدة، ص ٢٥.

الخاصة وانما عليها ان تنتظر في البيت حتى تفرغ لمداعبتها ، أن
أكون زوجا خالما للحياة الزوجية هو الموت ، منظر واحد و صوت
واحد و طعم واحد ، خلاصتها في النهاية عدد محدود من
الحركات والأصوات لا تزال تتكرر وتتكرر . . . حتى تنقلب الحركة
والجمود سين ، والصوت والصمت توأمين ، كلا كلا ، ما لهذا
تزوجت . . ان قيل انها بيضاء ، الست ذا مآرب في السماء ، بل
والسوداء . . وان قيل انها مدملجة فما عزائي عن النحيلة
والجسيمة ، أو انها مهذبة سليقة نبل وكرم فهل عطلت من المزايا
ربيبة الصربات الكارو؟ ! . .

اما حسنين بطل بداية ونهاية فيريد فتاة تصادقه ، ويتمنى لونها في بيت
مليء بالجوابي ، ويرى أن أجمل منظر في الدنيا منظر امرأة تخلع ثيابها ، ونراه ينقض على
خطيبته بهمة مختلسا القبلات من شفثيها بالقوة . وأما كمال عبد الجواد فقد اختار
أن يزور بيوت الدعارة بعد أن أخفقت حلوله المثالية لمشكلتي الجنس والزواج .

الطبقة الوسطى والدين

ان تقسيم شخصيات محفوظ الى شخصيات متبعية لحلول اجتماعية لمشكلة المجتمع
المصري وشخصيات متبعية للحلول الفردية لا يفيد كثيرا في معالجة موضوع الطبقة
الوسطى والدين كما أفاد في علاج موضوعات أخرى . لأننا نلاحظ أن أصحاب الحلول
الاجتماعية أنفسهم ينقسمون الى فريقين بالنسبة الى موقفهم من الدين : فريق رأى الحل
لكل المشكلات كامنا في العودة الى الاسلام وفريق رأى أن الحل يأتي عن طريق العلم
والاشتراكية . و اذا كان ايمان الفريق الأول بالدين لا يقف عند حد ، فان الفريق
الثاني لا يرى في الدين سوى مجموعة أساطير وخرافات . ولكن هذين الفريقين

مجتمعين لا يشكّلان ، كما سبق أن أشرنا ، القسم الأكبر ولا الأهم من شخصيات قصص محفوظ ولا يأتي في مقدمة الصورة إلا أصحاب الحلول الفردية . وهؤلاء أيضا يبدو أنهم لا يتفقهون في موقفهم من الدين فبينهم الملحد الكافر بكل شي * مثل محجوب ، ومنهم من يصوم ويصلي مثل أحمد عاكف . ومنهم من ينتقل من الايمان الى الالحاد مثل كمال عبد الجواد .

و يبدو ومن قصص محفوظ أن الدين وما تعلق به من خرافات وأساطير كان لا يزال يلعب دورا في حياة الطبقة الوسطى الصغيرة في ذلك الدور الذي نتحدث عنه هذه القصص وأن مثليه كانوا يحظون بالاحترام عند كثير من فئات الشعب . وهكذا نرى أحمد عبد الجواد يصاحب أبناءه الى الصلاة كل يوم جمعة ، ونراه يهدق العطاء لمتولي عبد الصمد صانع الاحجية للأولاد . ونرى كامل رؤية لاذ في السراب يؤمن بالله ورسله وأوليائه والدعوات والتعاويذ والأضرحة ، وأحمد ورشدي عاكف يؤمنان بالمعاريث ، (وسائر سكان الزقاق يجعلون الشيخ درويش ويتبركون به . وقد وجد الشيخ درويش هذا في الدين ملاذا يمد ان عجز عن المحافظة على مرتبته الاجتماعية) وكذلك وجد عاكف أفندي ملاذا في العبادة والصلاة يمد عزله من وظيفته .

ولكن انتشار الثقافة وتسرب الفلسفات الالحادية الضمنية الى الجامعة المصرية بشكل خاص أدى الى ظهور تيارين : تيار يمثل الدين توطد ايمانهم بالاسلام يمد أن بنوه على علم بالدين ومعرفة به (فهمي عبد الجواد ومأمون رضوان وعبد المنعم شوكت) وتيار الذين كفروا بالدين (محجوب عبد الدائم وأحمد شوكت وعلي طه وكمال عبد الجواد) . ولكن الذين كفروا بالدين كانوا فريقين ايضا : فريق تبني مبادئ العلم والاشتراكية بدل الدين (علي طه وأحمد شوكت) وفريق حافظ علي الالحاد دون أن يستبدل به ايمانا جديدا (محجوب) ، أو ظل حائرا لا يدري ماذا يختار من المبادئ (كمال عبد الجواد) .

* ويلاحظ أن الهموم الاجتماعية تشغل شخصيات محفوظة في هذه القصص أكثر مما تشغلها الهموم الميتافيزيقية مثل مشكلة الموت وعشية الحياة الخ . ولا يستثنى من هذا الحكم إلا كمال عبد الجواد الذي أعياه البحث عن الحقيقة . ولكن شك كمال وعذابه كانا عقليين فقط ، فظل قلبه مسلما بحقوق الشعب والوطن ووجوب الجهاد من أجلها ، وظل متمسكا بحبل الحياة برغم شكهما في قصص محفوظة بعد الثلاثية فقد انعكس الاهتمام وصارت المشكلات الميتافيزيقية تحتل المكانة الأولى .

المجتمع الانتقالي والقيم المتغيرة - العوامل والنتائج

كان من نتيجة اصطدام مصر البلد المتخلف ذات المجتمع التقليدي بالحضارة الغربية منذ القرن التاسع عشر أن بدأ البنيان التقليدي لذلك المجتمع يهتز . وقد كان لذلك ردود فعل قوية وخاصة أن الحضارة الغربية اقترنت في أذهان المسلمين بالدين المسيحي ، وحملت في طياتها تهديدا أكيدا للمؤسسات الدينية الإسلامية لأنها حضارة علمانية غير مبنية على الدين ، فلا تتفق مع اعتبار الإسلام دينا ودولة في آن معا . وانقسم المفكرون المسلمون الى ثلاث فئات في موقفهم من هذه الحضارة الوافدة : فئة رأت احياء الدين الاسلامي والتمسك به واعتباره أساس الدولة الإسلامية ، وفئة رأت فصل الدين عن الدولة واعتماد المؤسسات الغربية كالبرلمانات والأحزاب الخ . ، وفئة أخيرة رأت التوفيق بين الإسلام والحضارة الغربية ، وحاولت جهدا اثبات أن الدين الاسلامي في حقيقته لا يتناقض مع تلك الحضارة ، بل يتفق الى حد بعيد مع ما تدعو اليه . وقد ظل هذا الانقسام في الرأي مستمرا في القرن العشرين ، وان كانت الغلبة عمليا لأصحاب فكرة تبني المؤسسات الغربية إذ نشأت الأحزاب وقامت البرلمانات ، وصارت الفكرة القومية تنافس الفكرة الدينية حتى غلبتها في النهاية وكانت ثورة ١٩١٩ تتوجها لتلك الغلبة . ولكن أصحاب الفكرة الإسلامية ظلوا ناشطين في الدفاع عمن

فكرتهم والدعوة لها . وقد كان من نتيجة هذا التصادم المستمر بين هاتين الفكرتين أن نشأت حركات سياسية تؤيد كلا منهما ، كما تركت بعض فئات المثقفين في حيرة وتمزق لا تدري أيهما تختار .

وفي قصص محفوظ نرى التيارين الاسلامي والعلماني الغربي يسيران جنباً الى جنب ويتصادمان ، كما نرى فريق الممزقين الحائرين بين التيارين والحضارتين . وتتمثل الأزمة الفكرية والنفسية الناشئة عن ذلك التصادم عند كمال عبد الجواد بنسوع خاص . نشأ كمال مؤمناً ايمانا عميقاً يصلي ويصوم ، ثم دخل الجامعة حيث أتيحت له فرصة الاطلاع على الفلسفات الالحادية فبدأ ايمانه يهتز ، وراحت مثالياته الدينية تتحطم الواحدة تلو الأخرى على صخرة النظريات العلمية والفلسفية من داروينية وغيرها ، وآمن بالعلم بدل الدين ،

... بلى ، وسيكون في تحرره من الدين أقرب الى الله مما كان في ايمانه به ، فما الدين الحقيقي الا العلم ، هو مفتاح اسرار الكون وجلاله ، ولو بعث الأنبياء اليوم ما اختاروا سوى العلم رسالة لهم ، وهكذا يستيقظ من حلم الأساطير ليواجه الحقيقة المجردة ، مخلفاً وراءه تلك الليلة العاصفة - التي صارع فيها الجهل حتى صرعه - حداً فاصلاً بين ما من خرافي وغد نوراني ، بذلك تتفتح له السبل المؤدية الى الله ، سبل العلم والخير والجمال ، وبذلك يعود الماضي بأحلامه الخادعة وآماله الكاذبة وآلامه البالغة . . .^١

ولكن مثالياته الجديدة هذه ما لبثت أن تحطمت هي الأخرى على صخرة شكوكه المتزايدة ،

... قد يلون من الوحشة بوحدة الوجود عند سبينوزا ، أو يتمزى عن هوان شأنه بالمشاركة في الانتصار على الرغبة مع شوبنهاور ، أو

يهون من احساسه بتماسة عائشة بجرعة من فلسفة لينتزر في
تفسير الشر، أو يروي قلبه المتعطر الى الحب من شاعريّة
برجسون، بيد أن جهاده المتواصل لم يجد في تقليد مخالف
الحيرة التي تبلغ حد المذاب، فالحقيقة محشوق ليس دون
المحشوق الآدمي بلالا وتمنعا ولعبا بالمقول وإثارة للشك
والغيرة مع اغراء عنيف بالتملك والوصال، وهي كالمحشوق
الآدمي عرضة لأن تكون ذات وجوه وأهواء وتقلبات ولا تخلو
في كثير من الأحيان من مكر وخداع وقوة وكبرياء...^١

وانتهى به المطاف الى الشك المطلق في كل شيء: في العلم والفلسفة
والقيم " - حتى مفاهيم الروحية الحديثة وتحضير الأرواح غرقت فيها حتى أنني،
ودار رأسي، وما زال يدور، في فضاء مخيف، ما الحقيقة؟، ما القيم؟، ما أي شيء؟
اني أحيانا أشعر بتأنيب ضمير لفعل الخير كالذي أشعر به عند الوقوع في الشر!^٢

وتتجلى النتائج المدمرة لهذا الصدام في شخصية محبوب عبد الدائم الذي
تحرر من كل شيء: من القيم والمثل والمقائد والمبادئ، ومن التراث الاجتماعي
عامة. كان يرى أن أصدق معادلة في الدنيا هي: الدين + العلم + الفلسفة +
الأخلاق = طظ. وكان يفسر الفلسفات بمنطق ساخر يتسق مع هواه، يتفق مع
ديكارته على أن النفس أساس الوجود، " ثم يقول بعد ذلك ان نفسه أهم ما في
الوجود وسعادتها هي كل ما يعنيه. " ويمجب كذلك بما يقوله الاجتماعيون من
أن المجتمع خالق القيم الأخلاقية والدينية جميعا، ولذلك يرى من الجهالة والحمق
أن يقف ههنا أو قيمة حجرة عشرة في سبيل نفسه وسعادتها! وإذا كان العلم هو

١. السكرية، ص ١٧ - ١٨.

٢. نفسه، ص ١٢٦.

الذي هياً له التحرر من الأوهام ، فليس يعني هذا أن يؤمن به أو أن يهبه حياته ، ولكن حسبه أن يستغله وأن يفيد منه . فلم تكن سخريته من رجال العلم دون سخريته من رجال الدين ، وإنما غايته في دنياه : ^١ اللذة والقوة ، بأيسر السبل والوسائل ، ودون مراعاة لخلق أو دين أو فضيلة ^٢ . ويشير محفوظ الى ظروف نشأة محجوب و فقره كأسباب محتملة لاتجاهه هذا ، ولكنه يؤكد كذلك أن من أسبابه تعرضه للنزعات الالحادية في الجامعة التي وجدت عنده أرضاً خصبة تنبت فيها وتنمو ولكنه هثر كذلك على نزعات غريبة وآراء لم تدر له بخلد . عثر على موضة الالحاد والتفسيرات التي يبشر بها علماء النفس والاجتماع للدين والأخلاق والظواهر الاجتماعية الأخرى ، وسربها سروراً شيطانياً ، وجمع من نخالتها فلسفة خاصة اطمأن بها قلبه ^٣ وهكذا فقد كان للتمرن للحضارة الغربية آثار سلبية عند الشبان الذين لم يكن لهم من النضج والمناعة ما يعصنهم ضد تلك الآثار . ويبدو أن عجز نظام التعليم وبعض العوامل الاجتماعية الأخرى كانت تضاعف من ذلك الأثر .

ولعل من أهم هذه العوامل الهجرة الى المدينة . فاثنتان من أبطال محفوظ من أصل قروي ، وهما محجوب عبد الدائم وحسين كامل . أما الأول فان فقره جعله يرقب لذات القاهرة من بعيد ، وجعله بمداه عن ضوابط المجتمع القروي يتبنى فلسفة تتناسب مع طموحه وفقره وتطلعه الطبقي ، فتنكر لكل القيم الدينية والاجتماعية كما رأينا . وأما الثاني فان شعوره بالضياح في القاهرة أقوى : " سيبقى هذا القبر المغمور في المراة رمزا لضياحهم المخجل في هذه المدينة الكبيرة " ^٣ . وقد أدى به ضياحه

١ . القاهرة الجديدة ، ص ٢٥ - ٢٦ .

٢ . نفسه ، ص ٢٦ .

٣ . بداية ونهاية ، ص ١٦ .

وفقره وطموحه الى أن يتبع طرقا لا أخلاقية في محاولته الارتقاء اجتماعيا ، ولم يردعه
ايمانه الديني القلق ، ولا أية مبادئ تلقاها في المدرسة ، ولا ضوابط اجتماعية لم
تكن متوفرة في القاهرة كما في القرى عن أن يتبعها .

ويشير هذا الاهتزاز في القيم الناتج عن العوامل السابقة الى أن المجتمع
المصري كان يمر في مرحلة انتقالية . وقد رأينا قبلا كيف أن المرأة المصرية بدأت
تنال حريتها ، وتتعلم ، وتتوظف مما أدى الى أن يصير الرجال أقل سيطرة في المجتمع .
وكيف أن الأبناء صاروا أكثر حرية في تقرير مصيرهم ، وأكثر بعدا عن قيم آبائهم
وعاداتهم ومعتقداتهم بسبب الثقافة التي حصلوا عليها بنوع خاص ، مما أدى الى ظهور
فجوة حضارية بين الأجيال تمثلت أحسن ما تتمثل في عائلة أحمد عبد الجواد فـي
الثلاثية ، حيث نرى الأب شديد التمسك بالتقاليد والقيود التي يفرضها على أسرته
قليل الاهتمام بما عدا نفسه وعائلته ، قليل التفكير الذاتي ، يقبل المعتقدات ويسلم
بها . ونرى الأبناء أكثر تحررا وتسامحا تهمهم شؤون وطنهم ويضحون من أجلها ،
كثيرون التأمل ومراجعة القيم والمعتقدات . أما الأحفاد فقد تحرروا من جميع القيود
المائلة تقريبا والتزموا التزاما كليا بقضايا وطنهم وشمبهم ، وتبنوا قيما جديدة تماما
على المجتمع المصري . وإذا كان الأب يمثل المجتمع التقليدي الذي تخنق فيسه
الفردية تحت وطأة القيود الخارجية ، والأبناء يمثلون المجتمع الانتقالي الذي يوفق
بين متطلبات الفردية وقيود الجماعة ، فإن الأحفاد يمثلون المجتمع الحديث السني
تنطلق فيه الفردية فلا تتقيد الا بقيود ذاتية داخلية . وهكذا كان لعملية التفریب
آثارا ايجابية أيضا ان ساعدت على انتقال المجتمع المصري من مجتمع تقليدي السلولا
الأول فيه المائلة (الصفيرة والواسعة) والدين ، والسيطرة فيه للرجال وللكبار ،
الى مجتمع انتقالي يسير على طريق الحداثة والملنة ، وتلعب فيه المؤسسات الاجتماعية
والحكومية كالمدراس والأحزاب دورها بجانب المائلة ، ويتقدم الولا للوطن أو المبدأ
على الولا المائلة أو الجماعة المحلية أو الدين ، ويعطي المزيد من الحرية للنساء وللأبناء .

الفرد والمجتمع - الاغتراب الاجتماعي في قصص محفوظ^١

٦ يعرف حلليم بركات الاغتراب بأنه "تجربة نفسية شعورية عند الفرد تتصف بعدم الرضى والرفض والاحساس بأن هوية فسيحة عميقة تفصل بين العالم الواقعي السذبي يمشيه والعالم المثالي الذي يصبو اليه". ويضيف أن الانسان المغترب هو الانسان الذي لا يشعر بالانسجام مع عالمه ولا يتقبل قيمه وأنماط حياته الراهنة السائدة، ويرفض الأسس والمنطلقات والاتجاهات والنشاطات. وأنه "بهذا المعنى قد يغترب الانسان عن المجتمع ككل أو عن مؤسساته كالعائلة والدين والدولة وغيرها"^٢.

والاغتراب بهذا المعنى ظاهرة واضحة في قصص محفوظ الواقعية. ذلك أن جميع أبطال هذه القصص تقريباً، والعديد من شخصياتها الأخرى، يشتركون بالشعور بعدم الرضى عن المجتمع الذي لا يتيح لهم أن يحققوا ذواتهم، وأن يمشوا عيشة حرة كريمة. كما أن بعضهم يرفض القيم السائدة في المجتمع ويضيق بالضغط السذبي تمارسه على حريته الفردية بعض مؤسسات ذلك المجتمع. وسنحاول هنا أن ندرس الاغتراب عن المجتمع ككل وعن العائلة والدين في قصص محفوظ، ونؤجل البحث في الاغتراب عن الدولة حتى الفصل الأخير الخاص بالمشكلات السياسية.

أ - مصادر الاغتراب: يشير بركات الى مصدرين رئيسيين للاغتراب على صعيد المجتمع هما السيطرة المفرطة Over-Control وعكسها، أي فقدان السيطرة Under-Control^٣. أما السيطرة المفرطة فنلاحظ آثارها في قصص محفوظ متجلية في عجز

١. اعتمدت في هذا القسم على مقالة لحليم بركات بعنوان "الاغتراب والثورة في الحياة العربية" نشرت في مجلة مواقف، تموز - آب، ١٩٦٩، ص ١٨ - ٤٤.

٢. بركات، "الاغتراب والثورة في الحياة العربية"، ص ٢٤ - ٢٥.

٣. نفسه، ص ٢٩.

أبطال تلك القصص عن تغيير الواقع البشع الذي يحيونه والتمثل في سيطرة طبقة واحدة على مقدرات البلاد والفوارق الطبقة الحادة، وعجزهم عن تغيير القيم السائدة. كما يمجز بعضهم عن أن يتخلص من سيطرة العائلة (كمال عبد الجواد). كذلك نرى آثار فقدان السيطرة متجلية في انحلال القيم وعدم تمكنها من السيطرة على سلوك الأفراد (محبوب عبد الدائم وحسنين كامل).

ب- نتائج الاغتراب السلوكية: يقول بركات "ان مجالات التصرف الفمليسي أمام المفترب يمكن النظر اليها وتحديد ها على انها امتداد بين الانسحاب والاشترك التمردى الثوبى. بكلام آخر، على المفترب القيام بواحد أو بمزيج من ثلاثة أنواع من التصرف: بإمكانه الانسحاب من واقعه، أو الرضوخ اليه ظاهرا والنفور منه ضمنا، أو التمرد الثوبى عليه وتغييره^١. وفي قصص محفوظ نقع على أنواع التصرف الثلاثة هذه.

✓ ١. الانسحاب: وهو الحل الذي اختاره كمال عبد الجواد في الثلاثية ان يعتمد عن الحياة الواقعية، وانصرف الى ما سماه بحياة الفكر، وعاش داخل مشاعره الخاصة متنمعا عن المشاركة الفعلية في تغيير الواقع. كذلك اختار أحمد عاكف في خان الغليلي الانسحاب، واجترار آلامه، وادعاء الترفع عن الاهتمام بالمشكلات الاجتماعية لأن أمور الفكر، في رأيه، أهم بالنسبة للمثقف.

✓ ٢. الرضوخ: اختار كمال عبد الجواد هذا الحل بالنسبة لعلاقته بعائلته وبالدين، ان ظل يرافق والده الى صلاة الجمعة مراعاة لما سماه بحقوق الأبوة واحتراما للناس كما رأينا سابقا، مع أنه كان يعلم أن ذلك يتنافى مع الكرامة والصدق. كذلك اختار فؤاد الحمزاوي الرضوخ والحذر في انتقاد النظام القائم لأنه تمكن من تسلم وظيفة جيدة. ويمكننا أيضا أن نعد تصرف محبوب عبد الدائم وحسنين كامل اللذين اختارا طريق التسلق الطبقي ومهادنة الطبقة العليا وشاركتها الفساد نوعا من الرضوخ.

✓ ٣ . التمرد الثوري : اختار هذه الطريق عدد من شخصيات محفوظ مثل علي طه ومأمون رضوان في القاهرة الجديدة ، وأحمد راشد في خان الخليلي ، وأحمد شوكت وعبد المنعم شوكت في الثلاثية . وكان هؤلاء يعملون على تفتير الواقع من خلال الدعوة لمبادئ معينة ، أو الانتماء لأحزاب تعمل على قلب الأوضاع القائمة .

ويلاحظ أن الشخصيات الرئيسية في قصص محفوظ تختار الحلين الأولين أي الرضوخ والاعتراب ، وأن الاعتراب عن المجتمع بمعنى رفض الأوضاع الاجتماعية القائمة تشترك فيه معظم شخصيات محفوظ ، ولكن الاعتراب عن الدين والمائلة يقتصر على بعض فئات المثقفين . وما يخفف الميل إلى الاعتراب عن المائلة شدة الاعتراب عن المجتمع وحاجة المرء إلى الانتماء . أما الاعتراب عن الدين فيخفف من الميل إليه كون القيم التي تؤدي إلى الاعتراب عنه مقترنة بحضارة غريبة معتدية .

وبعد ، فقد حاولت في هذا الفصل أن أحدد المشكلات الاجتماعية التي واجهت الطبقة الوسطى المصرية كما عرضها نجيب محفوظ في قصصه الواقعية ، فتبين لي أن المشكلة الأساسية التي كانت تشغل أبطال تلك القصص من الطبقة الوسطى الصغيرة هي مشكلة التحرك الاجتماعي والمواقف الشديدة التي كانت تفتقر لذلك التحرك ، وفي مقدمتها استئثار طبقة واحدة بالمناصب وبثروة البلد ، والفساد الطبقي الحادة . وقد واجه هؤلاء الأبطال الذين كان يقلقهم الصمود إلى أعلى والخشية من السقوط إلى مرتبة أدنى على السلم الاجتماعي تلك المواقف بحلول فردية اقتصادية تسليكية أو هروبية تعويضية . ولكن بعض شخصيات محفوظ الأخرى كانت تحاول أن تجد حلا جذريا للمشكلة عن طريق العمل الحزبي المنظم والدعوة لمبادئ معينة سعيا وراء محو الظلم الاجتماعي وتحقيق المساواة . وقد اختلفت

مواقف الفريتين من الطبقات الأخرى انطلاقاً من اختلافهم في معالجة المشكلة الطبقيّة، كما اختلفت مواقفهم من أمور أخرى عديدة كما رأينا .

وبالنسبة للعائلة كوحدة اجتماعية تبين لي أنها كانت لا تزال تلعب دوراً مهماً في حياة الطبقة الوسطى الصغيرة التي كانت تعاني من مشكلات عديدة ويحتاج أفرادها إلى ملاذ عاطفي لمجابهة تلك المشكلات والشعور بالانتماء، وخاصة أن انتماءهم الطبقي لم يكن يوفر مثل ذلك الشعور فيما يبدو.

ولاحظت أن هنالك تبديلاً في القيم، وفي الأدوار العائلية وفي موقف الأفراد من الدين، ومن كثير من المسائل الأخرى مما يعني أن المجتمع كان يمر في مرحلة انتقالية. وربما كانت عملية التفريغ المامل الأساسي في ذلك التحول.

وأخيراً وجدته أن الصوامل المختلفة داخل المجتمع التي سبقت الإشارة إليها كانت تؤدي إلى اقتراب الأفراد من مجتمعهم.

الفصل الثالث المشكلات الاقتصادية

أحرزت البرجوازية المصرية عددا من المكاسب الاقتصادية نتيجة ثورة ١٩١٩ ودستور ١٩٢٣. وبدأت تتحرر تدريجيا من سيطرة الأجانب على الصناعة والتجارة وعلى الوظائف الحكومية. ولكن هذه المكاسب كانت مقصورة، في الأغلب، على البرجوازية الكبيرة التي راحت تتحالف مع طبقة الملاك، وتشاركها الحكم وتستأثر معها بالمناصب العالية. أما البرجوازية الصغيرة فما لبثت - بعد تحسن وضعها في أوائل العشرينات - أن وجدت نفسها تمر بمحنة قاسية "ذلك أن انتشار التعليم وتعثر التوسع الاقتصادي أدبها إلى وجود عدد كبير من الشقيين المأجرين عن إيجاد وظيفة بقدر عددهم عام ١٩٣٧ بـ ٧٥٠٠ حامل بكالوريا و ٣٥٠٠ من خريجي الجامعة أو المدارس العليا^١. وكانت هذه الطبقة تعاني أيضا من عدم تناسب مرتباتها مع مطالبها المادية والاجتماعية "بينما يحظى بالجزء الوافر قلة لا يستند معظم أفرادها إلى الكفاية الحقيقية في العمل والانتاج. فالسخط في دوائر الحكومة عنيف على كبار الموظفين المحظوظين. وبينما هناك قيود على الترقيات بالنسبة إلى أغلبية الموظفين نجد أنه لا قيود زمنية بالنسبة إلى كبار الموظفين...^٢

وبالإضافة إلى ذلك عانى موظفو الحكومة من التقلبات السياسية لأنه كان من عادة كل حكومة أن تعين أو تترقي عددا كبيرا من مؤيديها أو المتصلين بهم، وأن تحيل على التقاعد أعداءها السياسيين، وهكذا وجد في مصر جهازان حكوميان كاملان يخلت واحدما الآخر بالمدافرة كذلك وجد عدد من الموظفين المقتردين

Issawi, Egypt: An Economic and Social Analysis, P. 151

٢١

٢. البراهي، حقيقة الانقلاب الأخير...، ص ٧٥ - ٧٦.

والمجتهدين الذين لم يترقوا في مدة عشرين سنة، كما وجد آخرون ممن ترقوا درجات عدة في غضون أشهر قليلة^١.

أما فئة صفار الأعمال فكانت تجد مجال النمو أمامها ضيقاً " إذ ليس ثمة وجود للمنافسة الفعلية وإنما الاحتكارات الضخمة هي التي تسيطر على الحياة الاقتصادية^٢.

وأدى التضخم المالي الناشئ عن ظروف الحرب العالمية الثانية إلى اتساع الشقة بين الأغنياء والفقراء، وازدياد حدة الفلأ. ولم يفد من ظروفها إلا الأجانب وكبار الأغنياء، في حين تضرر أصحاب المعاشات وأصحاب الأعمال الصغيرة. كما أن انسحاب قوات الحلفاء بعد الحرب أدى إلى وجود أكثر من ٢٥٠,٠٠٠ عاطل عن العمل وإلى كثير من الشقاء والهيأ^٣.

وهكذا تحملت الطبقة الوسطى الصغيرة أعباء الأزمات الاقتصادية والظروف غير المواتية لتقدسها وعيشها المطمئن من الناحية الاقتصادية. وقد صور محفوظ انكسارات ذلك الوضع على قطاعين من هذه الطبقة بشكل خاص: صفار الموظفين والطلبة. وترى الدكتورة فاطمة موسى أن الفقر هو الحقيقة الأولى في قصص محفوظ الواقعية، وأن العامل الاقتصادي هو المحرك الأول للشخصيات، وهو أساس العلاقات الاجتماعية بل والشخصية بين الأفراد^٤. ولكنني أخالف الدكتورة فاطمة

١. Issawi, Egypt: An Economic and Social Analysis, P. 177.

٢. البراهي، حقيقة الانقلاب الأخير، ص ٧٦.

٣. Issawi, Egypt at Mid-Century, P. 262.

٤. فاطمة موسى، "نجيب محفوظ وتطور الرواية العربية"، الكاتب، يوليو، ١٩٦٨، ص ٨٢ - ٨٣.

الرأي . أولا ، لأنه لا يمكن اعتبار الفقر الحقيقة الأولى في الثلاثية حيث تعيش عائلة أحمد عبد الجواد حياة مقبولة لا يحكر الفقر صفوفها . والثلاثية ، كما هو معلوم ، أهم قصص محفوظ الواقعية . وثانيا ، لأنه إذا كان المقصود هو قصص محفوظ الأخرى فقط ، فإن الفقر في هذه القصص لا يصبح عاملا مهما الا باقترانه بالطبقة الوسطى التي تخشاه لما يعنيه من تهديد لمركزها الاجتماعي ولسمعتها الدائب في سبيل تحسين وضعها والارتقاء اجتماعيا . وهكذا فإن العامل الاقتصادي لا يمدد وكونه رافدا من روافد العامل الاجتماعي بالنسبة لمشكلات الطبقة الوسطى المصرية كما عالجها الكاتب .

١ . مشكلات صفار الموظفين

المشكلة الأساسية بالنسبة لهذا القطاع من الطبقة الوسطى الصغيرة ناتجة عن سمي أفرادهم لتحسين أحوالهم ، وأحوال أسرهم ، وتعليم أولادهم في ظروف يصفها الكاتب بأنها دقيقة^١ . أبرزها قلة مرتباتهم نتيجة^٢ الفوارق الطاغية التي تميز الموظفين^٣ ، وعدم توافر الضمانات ضد الشيخوخة والمرض والموت والصرف من الخدمة . وتظهر هذه المشكلة بشكل حاد في أغلب قصص محفوظ الواقعية بالصور التالية :

أ - القاهرة الجديدة : يمرض والد محبوب بطل القصة في البداية ، فيتوقف عن العمل ، وينقطع مرتبه الصغير بمقد أشهر معدودة من توقفه . وهكذا يزداد حال الأسرة سوءا على سوء . ويتحمل محبوب الطالب في السنة الأخيرة من الجامعة ، والذي لم يمدد بينه وبين الامتحان النهائي سوى أربعة أشهر المعية الأكبر المترتب على ذلك لأنه أمل الأسرة الوحيد . ان انقطاعه عن الدراسة حالا يعني ضياع

١ . خان الخليلي ، ص ١٦٦ .

٢ . بداية ونهاية ، ص ٣٠٦ .

مستقبله لأنه إذا وظف قبل نيله اللسان فسيعد كحامل بكالوريا . ويقبل محبوب أن يعيش بجنيه واحد في الشهر بدل ثلاثة جنيهات كيما ينهي سنته . ولكن القلق والحزن والثورة لا تزيله أبدا منذ اللحظة التي سمع فيها بمرض والده . حسد صاحبه مأمون رضوان وعلي طه على ما يتمتعان به من طمأنينة وثقة ، ودعا بلده لأن توزع الحظ بين أبنائها بالعدل ، وقارن بين حظ أسرته من الحياة وحظ الأغنياء منها " وتفكر محزوناً في الفقر الذي يترص به ، فرآه يبسم اليه هازناً كأنما يقول له : " ما استطعت دفعي بثلاث جنيهات ، فهل تدفعني غداً بجنيه واحداً ! " ١ واضطر لأن يفسر مسكنه ومأكله فطحنه الجوع طحناً واشتد هزاله وشحوب وجهه ، حتى خاف على نفسه . وفكر في أن يسأل اخوانه أن يطعموه ولكن كرامته أبت عليه ذلك . واذ يمجزع من دفع شبح الجوع يثور على قذارة الانسان وحقارته ،

... هل من دليل على حقارة الانسان أكبر من ضرورة الطعام لحياته ؟ ! أليكون هذا الطعام الذي يقتلع من الطين ويسمد المقاذورات زبدة الحياة وقواها ؟ وعماد التفكير ؟ والمبدع الحق للمثل العليا ؟ أليس هذا دليلاً على أن جوهر الانسان قذارة وحقارة ؟ ! ... ٢

ويعتني لو كان يعرف فن النشل " ... النشل فن سحري ، والنشل يملك ما في جيوب الناس جميعاً . وقد عرف سادة هذا البلد مغزى هذه الحكمة ٣ . ولا نراه يقدم على أي عمل ايجابي لازالة أسباب الظلم الاجتماعي الذي يعاني هو منه كما

١ . القاهرة الجديدة ، ص ٤١ .

٢ . نفسه ، ص ٦٠ .

٣ . نفسه ، ص ٦٠ - ٦١ .

تعاني جماهير الشعب المصري الواسعة، بل يلجأ الى قريبه أحمد أفندي حمديس طلبا للمساعدة. كما يلجأ لابن بلده سالم الاخشيدي سميهورا^١ ايجاد عمل مما يحصل به على بعض المال. ولكنه ينال اللسانس وهنا تبدأ مشكلة أخرى — مشكلة ايجاد الوظيفة. وسنرى بعد قليل كيف واجه محجوب هذه المشكلة.

ب — خان الخليلي — أحيل رب الأسرة عاكف أفندي على المعاش " وهو في أواسط العمر ومشرق الآمال " فانقطع مورد رزقه تقريبا. وتهددت الفاقة أسرته البائسة وعاش أقسى أيام حياته وآلمها الى أن اعتاد تلك الحياة بعدما اتخذ لحياته من نظام وفرض على نفسه من عزلة قاسية^١. أما ابنه أحمد بطل القصة فقد اضطر لأن يتوقف عن متابعة دراسته بعد البكالوريا " ودفع به الى مواجهة الشدة فانزع — من نصيب الآمال ورمي به الى جحيم اليأس^٢. وتوظف بالأشغال — درجة ثامنة — مضحيا في سبيل اعانة أسرته وتعليم أخيه رشدي الذي توظف بأحد البنوك بعد نيله الليسانس. وكان لذلك الانقطاع آثار بالغة في حياته. ولكنه يكتفي بالمعاناة النفسية والشعور بالاضطهاد، ولا يقوم بما من شأنه ازالة الظلم الاجتماعي. كذلك تلهي أخاه رشدي ملذاته وشهواته عن التفكير في مشكلة أسرته ومشكلات المجتمع المصري عامة. وأما الأسرة فتضطر لأن تغير من نظام حياتها، فتكفي في رمضان بقليل من الصنوبر والزبيب لضرورتهما في الحشو، ونصف لفة قمر الدين لتضيير الريق، وتقنع من الكنافة بمرة واحدة، ومن القطائف — وهذه لا تقلل بالسمن — بمرتين^٣.

١. خان الخليلي، ص ٢٤ — ٢٥.

٢. نفسه، ص ٣٨.

٣. نفسه، ص ٧٨.

ج - زقاق المدق - في هذه القصة موظف سابق هو الشيخ درويش. كان في عهد شبابه مدرسا في إحدى مدارس الأوقاف، وعندما انضمت مدارس الأوقاف إلى وزارة المعارف، سويت حالته ككثيرين من زملائه من غير ذوي المؤهلات العالية، فاستحال كاتباً بالأوقاف ونزل من الدرجة السادسة إلى الثالثة وعدل مرتبه على هذا الأساس. فحزن لمصيره حزنا عميقا، "وثار ثورة جامحة ما وسعته الثورة، يملنها حيناً، ويكتمها - مقهوراً مغلها على أمره - أحيانا"، ثم ترك الوظيفة وقطع صلته بالهيئة الاجتماعية، وهاجر أهله وأخوانه ومعارفه إلى دنيا الله كما يسميها، وتحول إلى "ولي من أولياء" الله يأتيه الوحي باللغتين العربية والانجليزية^١. وهكذا تتجلى في سيرته مأساة الطبقة الوسطى الصغيرة ومعاناتها من الأزمات الاقتصادية الحادة بسبب غياب الضمانات الاجتماعية.

د - بداية ونهاية - يتوفى رب الأسرة في بداية القصة تاركا لأسرته جنبيين وسبعين قرشا هي كل ما تملك من نقود، فتبدو الحياة لها كحالة الوجه. وتضطر الأم لأن تقطع المصروف عن ولديها التلميذين. وتضطر الابنة لأن تخبسط بالأجرة. كما تضطر الأسرة لأن تنتقل إلى مسكن جديد، ولأن تباع الاثاث قطعة بعد قطعة. ويضطر الابن الأكبر حسن الذي لم يتعلم أن يبحث لنفسه عن عمل، فلا يجد إلا في الحياة غير الشريفة ملاذا. ونسمعه يتحسر على أيام والده،

... رحمك الله يا أبي، ألا تعلم بأنني تعبت كثيرا بعد موتك؟
كان نزعنا لا يهدأ، وكنت أشعر أحيانا بأنني أمقتك، ولكن
أين أيامك؟ فيما عدا أيام الصيد لم أتناول لقمة في بيتنا.
وماذا يأكلون؟ الفول غذائي الوحيد، فول، فول. الحمير
تجد شيئا من التنويع^٢.

١. زقاق المدق، ص ١٦ - ١٨.

٢. بداية ونهاية، ص ١١٨.

وعندما يسأله أخوه حسنين عن نوع عمله يجيبه^٣ اني أكسب بمرق جبيني على نحو ما... أو بالأحرى بدم جبيني . لا بد من المرق كي تعيش ولكن يختلسف العضو الذي يمرق بين فرد وآخر^١ . وهكذا فهو يدفع حياته ثنا للقيمة المعيش في نهاية الأمر.

أما حسين الابن الثاني فيضطر لأن يتوقف عن متابعة دراسته بعد حصوله على البكالوريا ،

... وقد ذاقنا الأسيرة في الفترة السابقة لظهور النتيجة مرارة الاشفاق والشك . ولم يكن أحد يجرو على أن يتكهن بما يجد فيما لو أخفق حسين وحرم من المجانية... وعند ما تناول حسين الجريدة من البائع وأجرى بصره الزائغ فسي صفحاتها باحثا عن نمرته ، التف به أخوه وأخته وأمه بقلوب خافقة ينهض في أعماقها الأمل ويظلمها الخوف والصنداب . فانطبعت اللحظة الرهيبة على نفوسهم الى الأبد^٢ .

ويلجأ السي صديق والده أحمد بك يسري ليجد له وظيفة . ونسمه يخاطب نفسه ،

... اننا نأكل بعضنا بعضا ، ينهضي أن نسر بتهريج حسن وعيشه ما دام يجيئنا كل شهر بفخذ خروف . وينهضي أن نسر بأختنا الخياطة ما دامت تعد لنا لقمتنا الجافة . وهذا الشاب المتذمر ينهضي أن يسر بانقطاعي عن التعليم ما دام سيتم تعليمه هو . يأكل بعضنا البعض . أي وحشية أي حياة!

١ . نفسه ، ص ٢٤٠ .

٢ . نفسه ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

لعملي لا أجد الا عزاء واحدا وهو أن قوة اكبر منا جميعا
تطحننا طحنا وتلتهمنا التهاما ، واننا نصمد ونتقاتل*^١ .

وبمقد ان يمين كاتبا بمدرسة طنطا الثانوية بمرتب قدره سبعة جنيهات شهريا
نراه حزينا ثائرا يربط بين مشكلته ومشكلة الأمة ولا ينسى الأمل ،

... يا للمحب . ان مصر تأكل بنيتها بلا رحمة . ومبع
هذا يقال عنا اننا شعب راني . هذا العمري منتهى الهوس .
أجل غاية الهوس أن تكون بائسا وراضيا . هو الموت نفسه .
لولا الفقر لوصلت تعليمي هل في ذلك من شك ؟ الجاه والحظ
والمهن المحترمة في بلدنا هذا وراثية . لست حاقدا ولكني
حزين . حزين على نفسي وعلى الملايين . لست فردا ولكني
أمة مظلومة ، وهذا ما يولد في روح المقاومة ويمزني بنسوع
من السعادة لا أدري كيف أسميه . كلا لست حاقدا ولا يائسا
أيضا ، واذا كانت فرصة التعليم العالي قد أفلتت من يدي ،
فلن تفلت من يد حسنين ، وربما وجدت نفيسة الزوج المناسب .
سوف ترد الروح الى أسرتنا فنذكر أيا منا السود بالفخار*^٢ .

وهكذا فان حسين يحزن ولكنه لا يفض ، ويتقلب شعوره بالواجب على
مشاعره الأخرى ، ويقرن آلامه وآلام أسرته بآلام الناس فيصبر ويتمزى . ولا ينظر
الى مشكلته من زاوية فردية ضيقة بل يفهم جانبها الاجتماعي العام ، ويسعى الى
حلها على هذا الأساس عن طريق اعتناقه للسيد الاشتراكي . وذلك على خلاف أخيه
أخيه حسنين الذي تعامى عن حقيقة المشكلة ، وأصبحت ثورته نوعا من التطلع الطبقي
والخطو الفردي غير المتزن نحو الهاوية .

١ . نفسه ، ص ١٨٤ .

٢ . نفسه ، ص ١٩٩ .

د - السراب - بطل القصة كامل رؤىة لاظ توقف عن متابعة دراسة الحقوق ليس بسبب الفقر بل بسبب خجله الشديد و خوفه من الناس . ولذلك وجد نفسه بحاجة لمديدة الى انتحال الأعذار عن انقطاعه عن العلم وفراره من معاهده ، وتصوير نفسه في صورة الضحية البريئة!

ثم وظف بالبكالوريا بمرتب ضئيل ، فنراه يشكو من أن الوظيفة تقبر الطموح لم أكن ممن يشقيهم الطموح ، وإذا كان لي منه شيء فيما مضى من أيام الأحلام ، فقد قبر في إدارة المخازن بوزارة الحربية حيث تمتد علاوة نصف جنيه من الآمال البعيدة . . . ٢ كما نراه شديد القلق على مصيره بعد وفاة جده وانقطاع معاشه ،

. . . تجهم لي وجه الدنيا ، وخارت عزيمتي ، وامتلات نفسي تشاؤما حتى توقعت شرا وراء كل خطوة أخطوها . أجل ألا يجوز أن تستغني عني الحكومة لسبب أو لآخر فأحرم حتى هذا المرتب الضئيل ؟ . . . ألا يحتمل أن يصادفني حادث في الطريق يقضي على معاهدة تقعدني عن السعي من أجل الحياة ؟ ! . . لماذا وجدنا على الأرض ؟ !

ويضطرب أن يستغني وأمه عن الخدم ، وان يغيرا سكنهما ، ويحول الفقر بينه وبين طلب يد الفتاة التي أحبها فيلجأ الى والده طلبا للمساعدة . ولا تحل مشكلته الا بعد وفاة ذلك الوالد المستهتر الذي ترك له ثروة كبيرة نسبيا .

١ . السراب ، ص ٩٦ .

٢ . نفسه ، ص ١٠٧ .

٣ . نفسه ، ص ١٣٣ .

وهكذا فإن الفقر وقلة المعاش وغياب الضمانات تجعل فئة صفار الموظفين دائمة القلق على مصيرها ، وتحد من طموح أفرادها وتطلعهم الى تحسين أحوالهم والارتقاء اجتماعيا . ولذلك تعاني هذه الفئة من الطبقة الوسطى أشد المعاناة بسبب ما تتصف به — مثل سائر فئات الطبقة الوسطى — من تطلع الى أعلى وحساسية شديدة تجاه كل ما يهدد مركزها الاجتماعي كما رأينا في الفصل السابق .

٢ . مشكلات الطلبة المتخرجين

واجهت هذا القطاع من الطبقة الوسطى في الفترة التي نتحدث عنها قصص محفوظة الواقعية مشكلتان : أزمة البطالة ، ومشكلة الوساطات . أما أزمة البطالة فيكثر الحديث عنها في السكرية حيث نسمع ابراهيم شوكت يخبر ابنه احمد أن بعض أصحابه يشكون من الشكوى من أن أبناءهم الجامعيين لا يجدون عملاً ، أو يعملون ككتبة بمرتبات تافهة^١ . كما نسمع أحمد عبد الجواد وصحبه يتحدثون عن الأزمة الاقتصادية وضيق المستقبل أمام الشباب بحيث أن خريجي الجامعات يتوظفون بمشرة جنيهاً ان وجدوا وظيفة بطلوع الروح^٢ . ويدور حديث بين الطلبة حول الموضوع ذاته :

- مهلاً ، ان الوظائف لا تنتظرنا ، ما مستقبل الحقوق أو الآداب ؟ ..
- التسكع أو الوظائف الكتابية ، تساءلوا عن المستقبل اذا شتم ...
- أما وقد ألغيت الامتيازات فستفتح الأبواب ! ..
- الأبواب ؟ ! السكان أكثر من الأبواب ...

١ . السكرية ، ص ٣٠ .

٢ . نفسه ، ص ٥٤ .

— اسمعوا . النحاس أدخل الطلبة الجامعة وكانت أبوابها مغلقة ، وأتاح لهم النجاح بعد أن أعجزهم المجموع المتعسف ، فهل يمجز من توظيفنا ١ .

وفي القاهرة الجديدة إشارة الى موضوع البطالة أيضا : ٣ أن أقرانه يتحدثون عن المستقبل بحزن و يأس . والسابقون منهم يقبضون وراء المكاتب في الوزارات يروحون بالشهادة عن وجوه أحرقتها حرارة الدرجة الثامنة . ٢ .

و كانت مشكلة الوساطات تفاقم من أزمة البطالة بجعلها الوظيفة متيسرة لأصحاب النفوذ في الدولة أي أبناء الطبقة العليا الحاكمة ومن تحالف معها ، وسد لها الطريق أمام أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة والطبقات الشعبية الذين أتيحت لهم فرصة التعليم الجامعي والذين لم تكن الشفاعات والوساطات متوافرة لديهم .

وفي القاهرة الجديدة اشارات عديدة الى هذه المشكلة : " ومضى الصحاب يجتمعون كل مساء تقريبا بنادي الجامعة ، وكانت تتراعى اليهم أخبار الزملاء ذى الحسب والنسب ، ممن تفتح لهم ابواب الحكومة بقدرة قادر . ٣ ونسمع موظف المستخدمين في مكتبة الجامعة ينصح محجوب عند طلبه وظيفة منه ،

— اسمع يا بني : تناس مؤهلاتك ، ولا تضع ثمن طلب الاستخدام ، المسألة لا تعد وكلمة واحدة ولا كلمة غيرها : هل لديك شفيح ؟ أنت قريب أحد ممن بيدهم الأمر ؟ أتستطيع أن تطلب بـ أحد من رجال الدولة ؟ ان أجبت بنعم فبارك مقدا ، وان أجبت بكلا فلتول وجهك وجهة أخرى . . . ٤

١ . نفسه ، ص ١٥٧ — ١٥٨ .

٢ . القاهرة الجديدة ، ص ٧٢ .

٣ . نفسه ، ص ٧٩ .

٤ . نفسه ، ص ٨١ .

و يفهم محبوب النصيحة جيداً فنسمعه يخاطب سالم الاخشيدي سكرتير الوزير:
 " يا سعادة البك الشهادة بغير شفاعة أرخص من ورقة اللحم، فهل آمل أن تلحقني
 بوظيفة ما؟^١ ويدله هذا على طريقة أخرى وهي أن يلجأ لرجل أو سيدة مسمون
 يدبرون الوظائف مقابل تنازل طالب الوظيفة عن جزء من مرتبه مدة من الزمن. ثم
 يمرض عليه الزواج من عشيقه الوزير، فيقبل محبوب، ويتسلم وظيفة عالية، وتحصل
 مشكلة ايجاد الوظيفة ومشكلة الفقر بالنسبة اليه. ولكن الحل لم يدم طويلاً وكانت
 نهاية محبوب سريعة لأنه تناسى الجانب الاجتماعي العام لمشكلته واختار حلاً
 فردياً لها كما رأينا في الفصل السابق.

وفي العسكرية أيضاً اشارات الى الوساطات وأهميتها لطالبي الوظيفة
 وللوظفين الساعين الى الترقيات. فنسمع ابراهيم شوكت يوالي نصيح ابنه أحمد:
 " ليس الشبان اليوم كما كانوا في الزمن الماضي، السياسة غيرت كل شيء، فكل كبير
 له مریدوه منهم، والطموح الذي يريد أن يشق سبيله في الحياة لا بد له من كبير
 يرجع اليه"^٢. كما نسمع ياسين عبد الجواد يخاطب مديره الذي نقل اليه خبر ترقيته
 الى الدرجة السادسة والتي ما كانت لتتم لولا الوساطة بقوله: "الوساطة! ما لها؟
 هل تتم حركة كبيرة او صغيرة دون وساطة؟ هل ترقى مخلوق في هذه الادارة، في
 هذه الوزارة، بما فيهم حضرتك، دون وساطة؟"^٣ ونسمعه أيضاً يخاطب منافسه
 على الدرجة السادسة: "هل يوجد رزق بدون وساطة في الدنيا؟ اصح كما

١. نفسه، ص ٨٣.

٢. العسكرية، ص ١٣ - ١٤.

٣. نفسه، ص ١١٩.

تشاء* وأسمى كما أشاء* ، وسأأخذ الدرجة صا حب القسمة والنصيب! *... ١ ويدور الحديث التالي بين اثنين من الموظفين في حانة:

— انت رئيس مستخدمين درجة سادسة ، ما لك أنت والسياسة ؟
 — درجة سادسة قديم من فضلك ، من أيام سعد !
 — انا درجتي السادسة من أيام مصطفى كامل ، لذلك أحلت بها على المعاش اكراما لذكراه... اسمعوا ، اليس الأفضل أن نسكرو ونفني ؟^٢
 وهكذا فان قطاع الطلبة كان يعاني من مشكلات معيشية ولا يرى المستقبل مضمونا أمامه لأن البطالة من جهة ، والوساطات من جهة أخرى ، كانت تحد من قدرة الطالب المتخرج على ايجاد العمل المناسب لمؤهلاته والذي يضمن له عيشا مريحاً وتقدماً اجتماعياً وهما الأمران اللذان يضعهما ابن الطبقة الوسطى هدفاً لجهوده ومساعدته . لذلك نراه يسعى الى تخطي هذه العقبات بطرق مختلفة كما رأينا في الفصل السابق .

٣ . الأزمات والظروف الخاصة

في السكرية اشارة الى الأزمة الاقتصادية التي واجهتها مصر عام ١٩٣٠ وما تلاه من أعوام ، وتضرر التجارة منها ،

عام ١٩٣٠ وما تلاه من أعوام ، تلك الفترة التي كان التجار من أصحابه يسمونها أيام الرعب ، حين استبد اسماعيل صدقي بالحياة السياسية وسيطر القحط على الحياة الاقتصادية ، وكانوا يصيحون ويسون على أخبار الافلاس والتصفيات ، ويقلبون الأكف وهم يتساءلون عما يخبى لهم الغد... ٣

١ . نفسه ، ص ١٩٥ .

٢ . نفسه ، ص ٦٩ .

٣ . السكرية ، ص ١٩ .

وفيها اشارة الى الفلاء في فترة الحرب الثانية والى معاناة الموظفين منه^١ . كما يشير الكاتب في خان الخليلي الى أغنياء الحرب^٢ . (وفي زقاق المدق * اشارة الى الثراء الذي أصابه التاجر سليم علوان أثناء الحرب بعد أن أخذ يتجر بمواد لم يكن يلقي اليها بالا كالشاي ، ففامر في السوق السوداء وبيع ارباحا طائلة^٣ . ولكن السيد علوان يظل يخشى الافلاس " وهو الى ذلك يعرف حق المعرفة سير تجار كبار ممن ربحوا أموالا طائلة ، وانتهوا الى الافلاس والفقرا المدقع او الى شر من ذلك كالانتحار او الموت كمد^٤ " . لذلك نراه يأخذ بمين الاعتبار اقتراح أبناءه شرا " أرغى أو تشييد عمارات بدل كنز الأموال في المصارف " فهو يعلم حق العلم ان التجارة التي تدر المال بلا حساب قد تبتلعه في ساعة نحس واحدة^٥ ، ولكن ظروف الحرب لم تكن تسمح بذلك .

وفي القصة ذاتها نقابل شخصا آخر استعاد من ظروف الحرب الثانية هو حسين كرشة . ويخبرنا الكاتب أنه كانت تلوح على سيماه مظاهر نعمة المشتغلين بالجيش البريطاني ، وأنه بعد عمله مع الانكليز نظير ثلاثين قرشا في اليوم ارتقت حاله وامتألت جيبه ورفه عن نفسه بحماس فائر لا يعرف الحدود وسمى نفسه بالسيلاج (Large)^٦ ولكنه كسائر المشتغلين مع الجيش البريطاني صرف من العمل قبيل انتهاء

١ . نفسه ، ص ٣٤٤ و ٢٩١ .

٢ . خان الخليلي ، ص ٦٢ .

٣ . زقاق المدق ، ص ٦٨ .

٤ . نفسه ، ص ٧٠ .

٥ . نفسه

٦ . نفسه ، ص ٣٦ .

الحرب، فنسمعه يخاطب صاحبه عباس الحلواني الذي عمل هو الآخر مع الجيش البريطاني :
 "نحن تمساء". بلد تمس وأناس تمساء... أليس من المحزن ألا نذوق شيئاً من
 السعادة إلا إذا تطاحن العالم كله في حرب دامية؟! فلا يرحمنا في هذه الدنيا
 إلا الشيطان!*" ويتابع بعد أن يسكر: "فكرة رائعة!... سأجنس بالجنسية
 الانجليزية، في بلاد الانجليز الكل سواسية، لا فرق بين الباشا وابن زبال، فلا
 يبعد أن يصير ابن القهوجي رئيس وزارة...".^٢ وهكذا تمتزج المشكلة الاقتصادية
 بالمشكلة الاجتماعية عنده. ولكنه لا يمي ارتباطهما إلا وهو سكران. كما أنه
 يختار حلاً هروبياً بدل مواجهة المشكلة بشجاعة ووعي.

كذلك هنالك إشارة في بين القصرين إلى ارتفاع الأسعار واختفاء المـ
 الضرورية بسبب الحرب الأولى. ونلاحظ أن التاجر أحمد عبد الجواد كان حريصاً
 على مواجهة ذلك، فأوصى بعض التجار من معارفه على شراء خزين البيت من السمن
 والقمح والجبين.^٣ ويخبرنا الكاتب أن أحمد هذا كان يستيقظ في ساعة باكورة
 مهمها تأخيريه وقت النوم حتى يتسنى له الذهاب إلى متجره قبيل الثامنة، وأن ليلته
 الصاخبة لم تكن لتنسيه واجب النهار.^٤ ونعلم أن سليم علوان في زقاق المدق —
 كان يحرص على الاشراف من مكتبه في الوكالة على داخل الوكالة وخارجها ومراقبة
 العمال والحمالين والزبائن جميعاً "لأن التاجر الحق — على حد تعبيره —
 ينبغي أن يكون مفتوح العينين دائماً".^٥ وهكذا تتجلى في هذين النموذجين

١. نفسه، ص ٣١٧.

٢. نفسه، ص ٢٢٤.

٣. بين القصرين، ص ١٧.

٤. نفسه، ص ٢١.

٥. زقاق المدق، ص ٦٨.

صفات البرجوازية النشيطة الحريصة على نجاح عملها . وإذا كان أحمد عبد الجواد يعرف الكثير من الصنع ، فيماشر النساء ويمأقر الخمرة ، ويسهر مع خلانه سهبرات طويلة صاخبة ، ويعرف أمور العالم حوله من سياسية واجتماعية ويشارك فيها ، فإن سليم علوان لا يعرف الا متعته الزوجية ، وكان لا يكاد يفقه شيئا - فيما عدا التجارة - من أمور الدنيا ١ . وهو بذلك يشابه " غوريو " في قصة الاب غوريو لبليزاك . وفي خان الخليلي اشارة الى الامتيازات الاجنبية ،

هذا صحيح ولكن لا يوجد حد فاصل بين السفلة والطبقة المالية ، فأرستقراطيوا اليوم كانوا سفلة الأسس . ألا تعلم أن رعاا الفزاة انتهبوا في الماضي أراضينا بحكم الفوز ؟ . . . وها هم أولا^٢ يكونون طبقة عالية متمعة بالجاه والسود والامتيازات التي لا حصر لها ٢ .

ويلفت النظر في الثلاثية عائلة عبد الحميد شداد المضارب بالبورصة والتي تطبق على نفسها نظاما اقتصاديا دقيقا ، وتكتفي بما يحد في بيئتها من الضروريات ، فلا تنفق مليما واحدا في غير موضعه وبلا موجب ، وتعامل الخدم باجحاف من الناحية المادية ، وتكتفي بتقديم ما " بارد للزوار ، وتمعيش حياة المال غايتها والعمل المتواصل جوهرها ، ومع ذلك تحيط نفسها بمظاهر الجاه ٣ . ولعل هذه البرجوازية الكبيرة هي التي قصد ها ر . هـ . غريتون عندما عرف الطبقة الوسطى بأنها ذلك القسم من النساس الذي يعتبر المال الشرط الأول للحياة والأداة الرئيسية لها ٤ .

١ . نفسه ، ص ٧١ .

٢ . خان الخليلي ، ص ٦٢ .

٣ . قصر الشوق ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

٤ . R. H. Gretton, The English Middle Class (London: G. Bell and Sons LTD, 1917), P. 8.

وبعد ، فقد حاولت في هذا الفصل أن أبرز مشكلات الطبقة الوسطى المصرية الاقتصادية في فترة ما بين الحربين كما عالجها محفوظ في قصصه الواقعية . فتبين لي أن محفوظ اهتم بمشكلات صغار الموظفين والطلبة بنوع خاص ، وأن الأولين عانوا من قلة المماش وعدم توافر الضمانات ، وأن الآخرين عانوا من البطالة والوساطات ، وكانت هذه المشكلات تضييق محاولات هؤلاء ، وأولئك تحسين أحوالهم والارتقاء اجتماعيا وهو ما تسمى اليه فئات الطبقة الوسطى . وهكذا فإن المشكلات الاقتصادية كانت رافدا من روافد المشكلات الاجتماعية بالنسبة لهذه الطبقة .

* كما وردت في القصص اشارات الى بعض الأزمات والى ظروف الحرب الاقتصادية واستفادة بعض الفئات منها وتضرر فئات أخرى .

الفصل الرابع

المشكلات السياسية

يرى صفران ^١ أن حركة الأفغاني - عرابي كانت التعبير المحلي الأول عن الوطنية في مصر. ولكن هذه الحركة أخفقت في أن تتطور الى حركة باقية بسبب ميزتها التامة السلبية تقريبا ، وعدم رسوها في فئة اجتماعية محددة. أما مع مصطفى كامل ولطفي السيد فقد طورت الوطنية نهائيا أيد يولوجية ايجابية تستلهم الأفكار العلمانية الليبرالية، وتستطيع الاعتماد على دعم طبقة وسطى هامة مكونة من المهنيين والموظفين الرسميين والمثقفين برزت في غضون ذلك. وهناك أسباب عديدة تبرر استجابة الطبقة الوسطى لاغراء الليبرالية الوطنية أكثر من غيرها تنبع من أنها طبقسة جديدة كليا لا جذور تقليدية لها في المجتمع، فهي بالتالي أكثر تقبلا للأفكار الجديدة بصورة عامة، وكان على أفرادها أن يتعرضوا بقوة للثقافة الغربية كي يصيروا مؤهلين لوظائفهم... وبما أنهم لم يشكلوا جزءا من النظام التقليدي المشترك، وبسبب انتمائهم، في الأغلب، الى مهن مستقلة، فان أفراد هذه الطبقة كانوا أكثر ميلا وقدرة من أفراد الطبقات الأخرى على ربط أنفسهم مع وحدة كبيرة وبالأحرى غامضة تدعى "الأمة" ^٢.

ويؤكد عيسوي، من ناحية أخرى، أن الطبقة الوسطى القاطنة في المسدن والمكونة من محامين وأطباء وصحفيين وأساتذة وموظفين رسميين كانت القطاع الأكثر تأثرا بأوروبا في مصر، وأنها شمرت بأنه مضيق عليها اقتصاديا وسياسيا من قبل الانكليز، فكانت بالتالي الطليعة الطبيعية للحركة الوطنية في عهد الاحتلال ^٢.

١. Safran, Egypt in Search of Political Community, PP. 102 - 103.

٢. Issawi, Egypt at Mid-Century, P. 42.

ولعب الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل دورا تاريخيا في قيادة الحركة الوطنية وتوجيهها قبل الحرب العالمية الأولى . واستطاع أن يجتذب كثيرا من الفئات المثقفة من الطبقة الوسطى — مثل الموظفين والطلبة والحامين — الى صفوفه ، كما اجتذب طلبة المدارس الى الحركة الوطنية وكانوا يعدون سلاحا من أسلحته^١ . ولكن دور هذا الحزب انتهى عند انفجار الحرب الأولى لأسباب عديدة تتصل بتغير الظروف الدولية والأيدولوجية التي كان يعمل بمقتضاها^٢ ، ووفاة محمد فريد واختفاء زعامته القوية بعد زعامة مصطفى كامل ، وظهور قيادة منظمة جديدة تمثلت في " الوفد المصري"^٣ .

ويعتبر الوفد ، في رأي عبد العظيم رمضان ، امتدادا لأيدولوجيا "الحزب الامة" الذي كان يتكون من عنصرين : عنصر المفكرين من ذوي العقائد الحرة ، وعنصر الأعيان من أصحاب الأملاك الواسعة . وكان من أهم أهدافه المطالبة بال دستور والاستقلال عن كل من تركيا وانكلترا ورفع لواء القومية المصرية ، والتفاهم مع سلطات الاحتلال بغية اعداد الأمة للاستقلال الذاتي . وهو يختلف بذلك عن الحزب الوطني الذي كان

١ . رمضان ، تطور الحركة الوطنية . . . ص ٣٤ و ٣٦ .

٢ . يقول رمضان ان سياسة هذا الحزب تتلخص في ثلاثة أمور : ٣ - ولا — أن المسألة المصرية مسألة دولية ، فيجب الاستعانة بأوروبا لأكراه انجلترا على الجلاء عن مصر . ثانيا — أن الدولة صاحبة السيادة الشرعية على مصر ، هي الدولة العثمانية ، فيجب التشبث بهذه العلاقة لاظهار بطلان الاحتلال وأكراهه في النهاية على الجلاء . ثالثا — الدعوة للجامعة الاسلامية . . . فلما انتهت الحرب أصبحت فرنسا حليفة لانجلترا ، وانهارت الدولة العثمانية تماما ، وانتهت بذلك سياسة الحزب الى طريق مسدود . المرجع نفسه ، ص ٣٢ و ٣٦ .

٣ . نفسه ، ص ٣٧ .

يدعو للجامعة الاسلامية، ويحارب بالاتفاق أو التعامل مع الانكليز. على أن آراء حزب الأمة ودعوته لم تستطع أن تشق طريقها في أذهان الشعب بمثل ما شقت طريقها آراء الحزب الوطني ودعوته^١.

وكان الوفد الذي شكله سعد زغلول للمطالبة بالاستقلال في أعقاب الحرب الأولى يضم عناصر تنتمي الى الطبقة البرجوازية الكبيرة والصغيرة^٢. كذلك كانت الطبقة البرجوازية في المدن أول من استجاب لنداء الثورة بعد نفي سعد زغلول ورفاقه الى مالطة، وتصدرت الطبقة المثقفة النضال وقادته منذ البداية^٣. فبدأ الاضطراب في القاهرة على يد الطلبة، حيث أضرب طلبة الحقوق أولاً، ثم تبعهم طلبة الهندسة والزراعة والطب والتجارة، وسار الجميع في مظاهرة انضم اليها طلبة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي واللاهية الثانوية وغيرها. كما انضم طلبة الأزهر والمدارس الأخرى وخصوصاً الثانوية الى الحركة في اليوم التالي^٤. واشترك المحامون في الحركة في اليوم الثالث (١١ مارس)، وأصدروا قراراً بالاضراب احتجاجاً على رفض الحكومة البريطانية السماح للوفد بالسفر، والتجائها الى طريق الارهاب بالقبض على الزعماء الأربعة. أما التجار فقد أغلق معظم متاجرهم وأقفلت البيوت المالية أبوابها منذ يوم ١١ مارس أيضاً^٥. كما أن الموظفين قاموا في شهر ابريل باضراب انتهى بسقوط الحكومة المصرية^٦.

١. نفسه، ص ٤١ - ٤٥.

٢. نفسه، ص ١٠١.

٣. نفسه، ص ١٣٠.

٤. عبد الرحمن الرافعي، ثورة سنة ١٩١٩ (جزءان؛ القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٦) الجزء الأول، ص ١٢٦ - ١٢٧.

٥. نفسه، ص ١٢٩ و ١٣٢ - ١٣٣.

٦. رمضان، تطور الحركة الوطنية...، ص ١٥٣.

ويشير رمضان الى الصبغة البرجوازية الفاقمة للجنة الوفد العامة التي كانت تتكون من تجار ومحامين وأطباء وأصحاب أقلام^١. وقد قامت تنظيمات الوفد المختلفة ذات الصبغة البرجوازية أيضا بدور فعال في ثورة ١٩١٩ في مرحلتها العنيفة والسلمية، وفي مقاطعة لجنة ملنر التي أرسلتها الحكومة الانكليزية لتقصي حقائق الوضع في مصر^٢. واتخذت زعامة الوفد موقفا متصلبا نسبيا من قضية الاحتلال والحماية الأمر الذي أدى الى انشقاق في قيادته، وخروج العناصر المعتدلة منه التي شكلت فيما بعد حزب الأحرار الدستوريين^٣. وهكذا جاء تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ودستور سنة ١٩٢٣ مخالفين للارادة الحقيقية للأمة وانتصارا لعناصر البرجوازية الكبيرة وكبار الملاك والرأسماليين والملك^٤. وذلك بعد نفي سمسند للمرة الثانية في ديسمبر ١٩٢١ وخلو الساحة لتلك العناصر المدعومة بالاحتلال. وكان ذلك بداية انتكاس الحركة الوطنية.

٨ ويلخص عيسوي الوضع السياسي في مصر بين عامي ١٩٢٣ و ١٩٥٢ فيقول
 ٣ أن المسرح السياسي في تلك الفترة كانت تسيطر عليه فئات أربع هي : أولا - الملك الذي كان مصمما على أن يملك ويحكم. وكان محاطا بحزب الاتحاد المكون من اصداق العرش ويتزعمه يحيى ابراهيم وتوفيق نسيم وأحمد زهور وحسن نشأت وعبد الفتاح يحيى وزكي الأبراشي وعلي ماهر وحسن صبري وحسين سني باشا. ثانيا - الوفد يتزعمه سعد زغلول باشا ثم النحاس باشا. وكان يمثل الوطنية الحناضلة والرغبة

١. نفسه، ص ١٥٨.

٢. راجع المرجع نفسه، ص ١٥٣ - ١٨٧ (التنظيمات الثورية)، و ص ٢٣٤ - ٢٤٠ (لجنة ملنر في مصر)

٣. تم تشكيل هذا الحزب في أكتوبر ١٩٢٢. راجع ظروف وملابسات انشقاق الوفد في رمضان، ص ٣١٦ - ٣٢٦، و ظروف تأليف الحزب الجديد، ص ٣٧٢ - ٣٧٩.

٤. راجع نصوص التصريح في رمضان ص ٣٦٠ - ٣٦١، و ظروف صدور الدستور ومضامينه الاجتماعية ص ٣٧٢ - ٣٩٨.

في الاستقلال ، و يدعمه ليس فقط الطبقات المصرية الجديدة الحاكمة بل أيضا جمهور الشعب . ثالثا - الجماعات التي كانت تشير اليها الصحافة البريطانية بالامتدلة كالأحرار الدستوريين ، وحزب الشعب ، والسعديين (الوفديين المنشقين) ، و يتزعمها عدلي يكن و ثروت و محمد محمود و اسماعيل صدقي و أحمد ماهر و النقراشي و عبد الهادي باشا . وكان هؤلاء يمثلون ، بوجه عام ، قطاعات السكان الأغني والأكثر محافظة ، و قد تكونت هذه الجماعات نتيجة انشقاقات متتالية عن الوفد الذي كانت تختلف عنه في قبولها الأكبر للمساومة مع انكلترا ، و تكفيها الأشد في علاقاتها مع الملكية . وكان حزب الكتلة يمثل مركزا خاصا بين هذه الجماعات ، و قد استمد مبرر وجوده من كونه متنفسا لطاقة مكرم عبيد باشا المتقد الذكاء . و وجدت أخيرا دار الندوب السامي البريطاني التي كانت لها الكلمة الأخيرة في الأغلب^١ .

و يضيف عيسوي أن أية انتخابات عرة - و معظم و ليس جميع الانتخابات كانت حرق - كانت تنتهي بصورة دائمة بنصر جارف للوفد ، و يتبع ذلك نزاع مع القصر ينتهي باستقالة الوفد ، أو عزله عن الحكم ، ثم حل البرلمان و تعليق الدستور أو تعديله ، و يظل الوفد معارضا حتى يدعى من جديد الى السلطة اما بسبب خصام يقع بين القصر و المعتدلين (سنة ١٩٢٥ مثلا) ، او نتيجة تبدل الرأي في انكلترا (سنوات ١٩٣٠ و ١٩٣٦ و ١٩٤٢) ، كما أن الانشقاقات من الوفد توالى ، الا أن الكفاح من أجل الاستقلال الذي ميز الوفد عن غيره من الأحزاب ، والمركز المستمد من ذكرى زغلول ، بالاضافة الى تنظيمه الفعال ، واهتمامه الأكبر نوعا ما بمصلحة البرجوازية الصغيرة و الجماهير ضمنت تفوقه^٢ .

Issawi, Egypt at Mid-Century, P. 260-261.

٠١

٠٢ . نفسه ، ص ٢٦١ .

ويعمل صفران اخفاق الحكم الدستوري في مصر في الفترة ذاتها ، فيرده الى ضعف البرجوازية المصرية وتأخر ظهورها وهي الطبقة ذات المصالح المتعارضة مع الطبقة المسيطرة ، والمستفيدة من الفكرة الديمقراطية ، ومجيء هذه الفكرة المتأخر الى مصر حيث أنها كانت نتيجة الحركة الوطنية وليس العكس كما هي الحال في البلدان الغربية . وهكذا " فان عدم وجود تصادم في المصالح بين الفئة التي حملتها الى السلطة موجة الوطنية في وقت متأخر وبين الملاك المسيطرين أدى الى اندماج الجماعتين معا بعد فترة وجيزة ، وترك البرامج والسياسات الداخلية للأحزاب المختلفة محابية لمصلحة الملاك ، وقليلة الاختلاف فيما عدا ذلك ، وحول السياسة الى صراع لا هوادة فيه من أجل السلطة بين أشخاص قليلين ومؤيديهم " ١ .

وقد أدى هذا الوضع السياسي المتسم بالفوضى والضياع والتفاعل مع وضع فكري مشابه الى تحويل المجتمع الى مجموعة أفراد يعيش كل منهم لذاته ٢ . كما أن تدهور سمعة الوفد وشعبيته بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ قوى الاتجاه الفردي ٣ .

١ . Safran, Egypt in Search of Political Community, P. 246-247.

٢ . Jamal Moh'd Ahmad, The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism (London: Oxford University Press, 1960), P. 121.

٣ . يشير جمال محمد أحمد في المرجع نفسه ، ص ١٢١ ، الى توفيق الحكيم وكتابه من برجنا العاجي كمثال على الاتجاه الفردي الذي لا يرى أملا في المستقبل أو فائدة في الكتابة كردة فعل للأوضاع في الثلاثينات تلك الفترة من تاريخ مصر التي ضاع فيها الهدف . ويشير محفوظ نفسه في إحدى المقالات التي أجريت معه الى أنه وعادل كامل وأحمد زكي مخلوف من كتاب جيله كانوا يمانون من "أزمة نفسية غربية جدا طابحها التشاؤم الشديد والاحساس بعدم قيمة أي شيء" في الدنيا والعبث . ويضيف " ولعل منشأ هذه الحالة راجع الى تبلور كل هذه الصفات في حياتنا السياسية وقتذاك ، فكذلك ننتهي الى أن كل جهد يبذل في الأدب ضائع تماما ولا قيمة له . . . " (دائرة ، "رحلة الخمسين . . . " ، ص (٢١) .

وجعل الطريق ممهدا لظهور جهات سياسية جديدة كان أبرزها جماعة الإخوان المسلمين والحزب الشيوعي المصري . وقد أبرز محفوظ في قصصه الواقعية حقائق الوضع السياسي في مصر في الفترة الممتدة بين عامي ١٩١٧ و ١٩٤٤ - وهي الفترة التي تغطيها الثلاثة - وانعكاسات ذلك الوضع على شخصيات تلك القصص المنتهية الى الطبقة الوسطى .

الطبقة الوسطى والاحتلال - ثورة ١٩١٩ .

كان الاحتلال مشكلة بالنسبة للطبقة الوسطى المصرية من ناحيتين : أولا - لأن هذه الطبقة كانت أكثر وعيا لقضية الاستقلال ومعناه السياسي من غيرها بسبب ثقافة أبنائها . وثانيا - لأن منافسة الأجانب لهذه الطبقة على الوظائف والعمل الحر جعل لها مصلحة حقيقية في التخلص منه . وقد حكى لنا محفوظ في بسين القصيرين قصة ثورة ١٩١٩ ومشاركة عائلة أحمد عبد الجواد التاجر الصغير فيها ، وكان دقيق الفهم للأوضاع في مصر تحت الاحتلال ولموقف البرجوازية الصغيرة منه حين جعل رب العائلة مؤيدا للحزب الوطني الشديد التطرف في موقفه من الاحتلال ، والمؤيد للخلافة التركية وللخديوي ، ومثلا بالتالي للمرحلة الوطنية الأولى في مصر . نشأت العاطفة القومية مع صباه فيما تلقته من أحاديث البطولة التي رواها السلف عن عرابي ، ثم اتقدت جذوتها بمقالات اللواء وخطبه^١ . ونحس كاهوس الاحتلال جاثما على صدور الناس في أواخر الحرب الأولى ، يمثلها الجنود الأستراليون^٢ الذين ينتشرون في المدينة كالجراد ويمشون في الأرض الفسادة . . . يسلبون الناس متاعهم جهارا ويتسلون بصب ألوان الاعتداء والاهانة عليهم بغير رادع^٣ . ويروي أحمد عبـد

١ - بين القصيرين ، ص ٣٨٠ .

٢ - نفسه ، ص ١٧ .

الجواد كيف أنه كان سائرا في الموسكي فاعترض سبيله جنديان أستراليان وطالباه بما معه فما كان منه الا أن نفض لهما جيوبه ، وأخرج الشيء الوحيد الذي كان معه وهو كوز ذرة ، فتناوله أحدهما وركله كالكرة وخطف الآخر عماقه وحل الشال ومزقه ورعى به في وجهه^١ . وفي مجلسه مع أصحابه تعذرهم^٢ العالمة من رفع أصواتهم : " خفضوا أصواتكم أو يبيتنا الانجليز في السجن " .^٣ وفي وجه الاحتلال كان انتصار تركيا في الحرب أمل الناس من هذه الطبقة لما يعنيه ذلك من خروج الانكليز والاستراليين وعودة الخديوي عباس ، ونسمع الشيخ متولي عبد الصمد يصلي : " — ثم أسأل الله المنان أن يعيد إلينا أفندينا عباس مؤيدا به جيش من جيوش الخليفة لا يعرف له أول من آخر . . وأن يمنى الانجليز وأعوانهم بهزيمة منكرة فلا تقوم لهم بعدها قائمة " .^٤

و يؤمن فهمي عبد الجواد — طالب الحقوق — بمبادئ الحزب الوطني أيضا . فراه واثقا من انتصار ألمانيا في الحرب ، ومهتما بالتخلص من كابوس الانكليز وبعودة الخلافة الى سابق عظمتها كي تتمهد طريق الاستقلال أمام المصريين^٥ . ولكن آماله تخيب عندما يهزم الألمان " غلب الألمان ! . . من كان يتصور هذا ؟ ! . . لا أمل بصدق اليوم في أن يعود عباس أو محمد فريد ، كذلك آمال الخلافة قد ضاعت ، لا يزال نجم الانجليز في صعود ونجنا في أفول فله الأمر . . " .^٥ الا أن هنالك فرقا بين وطنية الأب ووطنية الابن ، فالأب " قنع دائما من " وطنيته " بالمعاطفة والمشاركة الوجدانية دون الاقدام على عمل يغير وجه الحياة الذي آتس اليه فلا يرضى عنه بديلا ، لذلك

١ . نفسه ، ص ٤٨ .

٢ . نفسه ، ص ١١٧ .

٣ . نفسه ، ص ٤٨ .

٤ . نفسه ، ص ٦٦ — ٦٧ .

٥ . نفسه ، ص ٣٦٦ .

لم يدركه بخلد أن ينضم الى لجنة من لجان الحزب الوطني على شدة تعلقه بمبادئه ، ولا حتى أن يجشم نفسه شهود اجتماع من اجتماعاته . . ١٠ أما الابن فكانت أحاديث الوطنية تثير أكبر الأحلام في نفسه " في دنياها الساحرة تتراعى لعينييه دنيا جديدة ، ووطن جديد ، وبيت جديد ، وأهل جدد ، ينتفضون جميعا حيوية وحماسا " وكان يضايقه ما يرى من فتور وسذاجة وعدم مبالاة في عائلته ، فتشب في أضلعه نار الحسرة والألم ولا يجد متنفسا الا في الاجتماع باخوانه من الطلبة حيث يروي ظمأه السعاس والحسرة " ويسمو في وقدة حماسهم الى ذلك العالم الكبير من الأحلام والمجد " لم يكن يدري ماذا يمكن أن يصنع " ولكنه يشعر بكل ما في قلبه من قوة بأن شمة ما يجب عمله ، ربما لم يجده ماثلا في عالم الواقع ، ولكنه يشعر به كامنا في قلبه ودمه ، فصا أجدره أن يبرز الى ضوء الحياة والواقع أو فلتتمض الحياة عبثا من العبث وباطلا من الأباطيل . . ٢٠ أما ياسين أخو فهمي الأكبر فكان كوالده " يعطف على آمال أخيه ولكن في هدوء متسم بقلة الاكتراث ، تمنى مثله أن ينتصر الألمان وبالتالي الترك وأن تسترد الخلافة سابق عزتها ، وأن يمود عباس ومحمد فريد الى الوطن ولكن أمنية من هذه الأمانى لم تكن لتشفل قلبه في غير أوقات الحديث عنها " ٣ . وأما الأم فما كانت تفقه للوطنية معنى ،

— وكيف يطلبون اخراجهم (اي الانجليز) من ديارنا بعد اقامة طالت هذا الدهر كله ؟ لقد ولدنا وولدتم وهم

١ . نفسه ، ص ٣٧٦ .

٢ . نفسه ، ص ٣٧٤ .

٣ . نفسه ، ص ٦٦ .

في بلادنا فهل من "الانسانية" ان نتصدى لهم بعد ذاك
العمر الطويل من العشرة والجيرة لنقول لهم بصريح العبارة -
وفي بلادهم أيضا - أخرجوا ؟! ١

وبعد خيبة الأمل الناتجة عن هزيمة تركيا في الحرب، برز أمل جديد متمثل
في "الوفد" الذي شكله سعد زغلول للمطالبة بالاستقلال . و يصور محفوظ ببراعة الأثر
الذي تركته هذه الخطوة الجديدة في نفوس الناس،

... لم يكن شيء في السماء ولا في الأرض قد خرق المألوف
مما اعتاد السيد أن يراه كل يوم، ولكن نفس الرجل، والأنف
الموصولة بنفسه وربما أنفاس الناس جميعا تعرضت لموجة عاتية
من الانفعال والشعور خرجت بها عن طورها أو كادت حتى
قال السيد انه لم تمر به أيام كهذه الأيام اجتمع الناس فيها
حول نبأ واحد وغفقت قلوبهم باحساس واحد . فهي الذي
يلون بالصمت بين يديه ما لم يبدأ هو بالحديث نقل اليه في
اسهاب ما اتصل بعلمه عن مقابلة سعد لنائب الملك، وفي
مساء اليوم نفسه، وفي مجلس الطرب، أكد نفر من الصحاب
أن الخبر حقيقة لا يرتقي اليها الشك، وفي دكانه حدث
أكثر من مرة أن خائز زبائن لا تربط بينهم صلة تعارف سابق
في حديث المقابلة... ٢

ونعلم أن الوفد قد ضم بالإضافة الى سعد كلا من عبد العزيز فهمي بك وعلي
شعراوي باشا، وأنه توجه الى دار الحماية وقابل نائب الملك للمطالبة برفع الحماية
واعلان الاستقلال . كما طالب بالسفر الى لندن للسمي الى الاستقلال ٣ . ونعلم
أيضا أن سعد كان وكيلا للجمعية التشريعية وأن الآخرين كانوا عضوين فيها، وأن

١ . نفسه، ص ٣٧٢ .

٢ . نفسه، ص ٣٧٥ .

٣ . نفسه، ص ٣٦٨ - ٣٧٠ .

الطلبة الوطنيين كانوا يختلفون في سعد كثيرا " منهم من يعمده ذنبا من أذنب الانجليز ولا شيء أكثر من هذا ، ومنهم من يقر له بمزايا عظيمة جدية بأن ترفعه الى مصاف رجال الحزب الوطني أنفسهم " ولكنهم جميعا يباركون الخطوة التي أقدم عليها مع زميليه والتي يقال انه كان الداعي اليها كذلك لأنها " عمل مجيد لعله لا يوجد الآن من ينهض به مثله بعد نفي المبرزين من الوطنيين وعلى رأسهم محمد فريد . . . " كذلك نسمع بالتوكيلات ؟ التي عمد اليها الوفد لثبت أنه يتكلم باسم الأمة عندما سأله المندوب السامي عن الصفة التي كلمه بها . ويسر أحمد عبد الجواد ورفاقه من التجار بهذه التوكيلات ،

. . . أمسك السيد بالقلم ووقع بامضائه في سرور تجلى في تألق عينيه الزرقاوين وهو يبتسم ابتسامة رقيقة تمتع عن شعوره بالسعادة والخيلاء ان يوكل عن نفسه سعدا وزملاءه ، أولئك الرجال الذين ملكوا النفوس على حداثة شهرتهم حيث حركوا منها أهواء عميقة مكبوتة كالذواء الجديد يستأثر بأفكار المرضى بداء قديم استمصى علاجه بالرغم من استعماله لأول مرة . . . ٣

١ . نفسه ، ص ٣٦٦ .

٢ . يثبت المؤلف نى التوكيل في بين القصيرين ، ص ٣٧٧ وقد جاء فيه ما يلبي :
" نحن الموقعين على هذا قد أثبتنا عنا حضرات : سعد زغلول باشا وعلي شمراي باشا وعبد العزيز فهمي بك ومحمد علي علمية بك وعبد اللطيف المكباتي ومحمد محمود باشا وأحمد لطفي السيد بك ، ولهم أن يضموا اليهم من يختارون ، في أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سهيلا في استقلال مصر استقلالا تاما " .

٣ . نفسه ، ص ٣٧٧ .

ويسرون أيضا لأنه انضم الى الوفد من رجال الحزب الوطني محمد علي علوية بك وعبد اللطيف المكباتي^١. ويقولون أن سعد أثبت دائما أنه جدير باعجاب المعجبين، وأن حركته الأخيرة خليقة بأن تحله من القلوب في أعز مكان^٢. وتشرق أنفسهم بالآمال، وتنفض قلوبهم الفبار عن جواهرها، وتصير أحاديث السياسة "مزة" الشراب والطرب بالنسبة اليهم^٣. وهكذا يضحى نضال الوفد من أجل الاستقلال المصب الجديد لآمال هذه الطبقة خالفا الحزب الوطني الذي لم يلعب دورا فعالا بعد الحرب الأولى كما سبقت الإشارة.

ونسمع فهني يملئ على أخيه الأصغر كمال جزا من خطبة سعد أمام سلاطين الاحتلال في جمعية الاقتصاد والتشريع: "أعلنت انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها دون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية، فهي حماية باطلة لا وجود لها قانونا بل هي ضرورة من ضرورات الحرب تنتهي بنهايتها"^٤. وقد جاءت هذه الخطبة ردا على منع الوفد من السفر^٥ وبعد أن استقال رشدي باشا من الوزارة فخيّب السلطان المأمول بقبول استقالته...^٥ كما يثبت محفوظ نص رسالة الوفد الى السلطان^٦.

١. نفسه، ص ٣٧٨. كذلك انضم الى الوفد محمد محمود وأحمد لطفي السيد فصار يتألف من سبعة أعضاء. وانضم اليه بعد ذلك سبعة أعضاء جدد فبلغ عدد أعضائه أربعة عشر عضوا.

٢. نفسه

٣. نفسه، ص ٣٨٠.

٤. نفسه، ص ٣٩٥.

٥. نفسه، ص ٣٩٦.

٦. نفسه، ص ٣٩٦ - ٣٩٨.

وتعلن الأحكام العرفية بعد استقالة الوزارة، ويعتقل سعد و صحبه وينفون الى مالطة، ويكون لنفيهم وقع أليم في نفوس أحمد و صحبه يلتقط محفوظ آثاره بمهارة،

أثار "النفي" في نفوسهم ما خامرهم منذ الصبا من ذكريات قديمة أسيفة عن عرابي باشا ونهايته، فتساءلوا وهم لا يملكون قلوبهم من الجزع: أيجري نفس المصير على سعد زغلول و صحبه ؟ . . . أينقطع حقا ما بينهم وبين الوطن الى الأبد ؟ . . . أتموت هذه الآمال الكبار وهي لا تزال في مهد الأزهار ؟ . . . وشعر السيد بحزن لم يشعر بمثله من قبل، حزن ثقيل غليظ شاع في صدره كما يشيع الفشيان، فماتت تحت وطأته خمودا وهمودا واختناقا وجملوا يتبادلون نظرات ساهمة واجمة، ناطقة بغير لسان، صارخة بلا صوت، ثائرة بلا صخب، وفي الريق مرارة واحدة، ثم جاء في أثر الفار صاحب و ثان وثالث مرددين نفس النبا آملين أن يجدوا عند الآخرين مسكنا لما يستمر في نفوسهم، فـلا يظفرون الا بالحزن الصامت والوجوم الكثيب والثوران العظيم^١.

ثم تبدأ الثورة. يبدأها طلاب القانون وفهي عبد الجواد واحدهم،

. . . هانت الحياة كوسيلة حتى لم تعد تزن ذرة، وجلست كفاية حتى وسعت السماوات والأرض، وتأخى الموت والعيادة فكانا يدا واحدة في خدمة أمل واحد، هذه تؤيده بالجهاد وذاك يؤيده بالفداء، لو أن الانفجار الرهيب لم يقع لمات غما وكدا، فما كان يعتدل أن تواصل الحياة سيرها الهاديء الوئيد على أطلال الرجال والآمال، كان لا بد من انفجار ينفس عن صدر الوطن و صدره كالزلزال الذي ينفس عن أبخرة باطن الأرض المتجمعة، فلما وقعت الواقعة وجدته على ميعاد فألقى نفسه في خضمها^٢.

١ . نفسه، ص ٤٠٢.

٢ . نفسه، ص ٤٠٦.

و يصف محفوظ أحداث اليوم الأول من الثورة وانعكاساتها على فهمي : تجمع طلبة القانون وخطبهم وهتافاتهم وسيرهم في مظاهرة متوجهة الى مدرسة الهند سخانة ثم الزراعة فالطب فالتجارة " وما بلغوا ميدان السيدة زينب حتى انتظمتهم مظاهرة كبيرة انضمت اليها جموع الأهالي وتعالى الهتاف لصرو الاستقلال وسعد ، وكلما تقدموا خطوة ازدادوا حماسا وثقة وإيماناً بما يلقون في كل مكان من مشاركة تلقائية واستجابة بديهية ، وما يصادفون من نفوس متحفزة تصدعت بالغضب حتى وجدت في مظاهرتهم المتنفس . ١" و تصدى البوليس للمظاهرة واعتقل طلابا كثيرين .

وكان اليوم الثاني (يوم الاثنين) "يوم اضراب شامل اشتركت فيه جميع المدارس بأعلامها وحشود من الأهالي لا يحيط بها الحصر . . . وسارت المظاهرة سيرا مشهودا مارة بدور المعتمدين السياسيين معلنة احتجاجها بمختلف اللغات ، حتى بلغت شارع الدواوين وهناك سرت بين الجموع موجة اضطراب عنيفة وصاح صائحهم : " الانجليز ! " ، وما لبث أن فرق الرصاص مغطيا على أصوات الهاتفين فسقط أول القتلى ، وواصل قوم تقدمهم في حماس جنوني ، وتسمر آخرون ، وتفرق كثيرون يلوذون بالبيوت والمقاهي ، وكان هو (فهمي) ضمن الآخرين ٢ .

" وجاء الثلاثاء والأربعاء فكانا كالأحد والاثنين . . . مظاهرات فهتاف قرصان فضحايا . . . وما لبث أن أضرب عمال الترام وسائقو السيارات والكناسون فهدت الماصمة حزينة غاضبة موحشة . وترامت الأخبار حاملة البشرية بقرب اضراب الصحامين والموظفين ٣ . ويمتلأ قلب فهمي بالايان والأمل ويستهيئ بالموت " سيان أن أحيي

١ . نفسه ، ص ٤١١ .

٢ . نفسه ، ص ٤١٢ .

٣ . نفسه ، ص ٤١٣ .

وأموث، الايمان أقوى من الموت، والموت أشرف من الذل، فهنيتا لنا الأمل السذي هانت الى جانبه الحياة، أهلا بصباح جديد من الحرية، وليقض الله بما هسو . قاض... ١

وتتوالى المظاهرات ويتوالى سقوط القتلى ونسمع عن المعسكرات التي أقامها الجنود الانكليز في الأحياء وعن " قطع السكك الحديد والتلغرافات وقيام المظاهرات في شتى المديرية والمعارك التي تنشب بين الانجليز والثوار والمذابح والشهداء والجنائز الوطنية التي تشيع فيها النعوش بالعشرات والماصمة المضربة طلبتها وعمالها ومحاموها والتي لم يعد بها من وسيلة للمواصلات الا المربات الكارو" كما نسمع باشتراك النساء في المظاهرات ٢ .

ويشارك فهمي في الثورة اشتراكا فعليا . يسير في المظاهرات ويوزع المنشورات، ويعمل عضوا في لجنة الطلبة التنفيذية . ويكتشف والده ذلك بالصدفة فيحاكمة على جهاده، ويأمره بأن يقطع كل صلة بينه وبين الثورة . ولكن فهمي يرفض أن يقسم على القرآن بأن يترك الثورة لأنه لا يستطيع أن يتخلف عن اخوانه ولا تطيب له الحياة ان فعل ، ولأن حياته تهون في سبيل الوطن وهي ليست أحسن من حيوات الذين استشهدوا في المظاهرات ٣ . وهنا أيضا يتجلى الاختلاف بين وطنية الابن ووطنية الأب الذي يؤيد الثورة من بعيد وبقلبه وماله فقط،

١ . نفسه، ص ٤١٤ .

٢ . نفسه، ص ٤٢٨ .

٣ . نفسه، ص ٤٨٨ .

... انه لا يحقر المجاهدين ، هو أبعد ما يكون عن ذلك ، طالما تابع أنبياءهم بحماس ودعا لهم عقب كل صلاة بالتوفيق ، طالما ملأته اخبار الاضراب والتخريب والمعارك أملا واعجابا ، ولكن الأمر يختلف كل الاختلاف اذا صدر عمل من هذه الأعمال عن ابن من ابنائه ، كأنهم جنس قام بذاته خارج نطاق التاريخ ، هو وحده الذي يرسم لهم الحدود لا الثورة ولا الزمن ولا الناس ، الثورة وأعمالها فضائل لا شك فيها ما دامت بعيدة عن بيته . . فاذا طرقت بابه ، واذا تهددت أمنه وسلامة وحياة أبنائه ، تغير طعمها ولونها ومفزاها ، انقلبت هوسا وجنونا وعقوقا وقلّة أدب ، فلتشتمل الثورة في الخارج ويشارك فيها هو بقلبه كله ، وليبذل لها ما في وسعه من مال ، وقد فعل ولكن البيت له وحده دون شريك ، ومن تحدّثه نفسه — فيه — بالاشتراك في الثورة فهو ثائر عليه هو لا على الانجليز . . .^١

وهكذا يبقى فهمي الثائر الحقيقي الوحيد في عائلته . والدته لا ترى في وجود الانكليز ضرا ! يصيب أمة محمد ، وتقول لابنها " اذا رأى باشواتنا أن يخرج الانكليز من مصر فليخرجوهم بأنفسهم " .^٢ ويأمن لا يجد حرجا في التوفيق بسين حب الوطن وحب السلامة ، واذا شق التوفيق بينهما قدم حب السلامة .^٣ ونراه ينظر الى أمر الثورة من زاوية ضيقة " من حسن الحظ أن الباسل باشا من المنفيين ، انه شيخ قبيلة مرهوبة الجانب ولا أظن رجاله يسكنون على نفيه . . . " .^٤ ويشارك فقط في المظاهرات السلمية التي أعقبت الافراج عن سعد . أما كمال فكان أصغر من أن يفقه معنى الأحداث الجارية حوله . ومن هنا جاء احساس فهمي بالفرصة بين أهله وذويه .

١ . نفسه ، ص ٤٨٣ .

٢ . نفسه ، ص ٤٠٠ .

٣ . نفسه ، ص ٥٥٧ .

٤ . نفسه ، ص ٤٠٥ .

وبالافراج عن سعد يوم ٧ ابريل ١٩١٩ تدخل الثورة مرحلة جديدة .
ويعلق فهمي على ذلك بقوله : " - لو لم يسلم الانجليز بمطالبنا لما أفرجوا عن
سعد ، سوف يسافر الى اوربا ثم يعود بلا استقلال ، هذا ما يؤكد الجميع ، ومهما
يكن من أمر فسيبقى يوم ٧ ابريل سنة ١٩١٩ رمزا لانتصار الثورة^١ .

ويصور محفوظ رد فعل الشعب المصري تجاه هذه الخطوة : في طريق
النحاسين حيث تقوم دكان أحمد عبد الجواد " تعالت ضجة فجائية وفدت من بعيد
في بادىء الامر كهدير الأمواج ثم غلظت واشتدت حتى صارت بعزيف الريح أشبه
وقد لفت الحي كله قربه وبعيده . . . ووقف السيد على عتبة الدكان مقلبا عينيه
في أنحاء الطريق بقلب ارتد الى براءة الطفولة وبهجتها ، طالع أثر الخبر السعيد
في كل مكان . . . في الدكاكين التي سدت مداخلها بأصحابها وزبائنهم وهم
يتبادلون التهاني ، في النوافذ التي تزاومت فيها الأحداث وانطلقت الزغاريسد
من وراء خاصصها ، في المظاهرات التي تألفت ارتجالا ما بين النحاسين والصاغية
وبيت القاضي هاتفة قلوبها لسعد ، وسعد وسعد ثم سعد ، في المآذن التي
اعتلى المؤذنون شرفاتها يشكرون ويدعون ويهتفون ، في المربات الكارو التي تجمعت
بالعشرات حاملة المئات من النسوة المتلفعات بالملاءات اللف وهن يرقصن ويردن
الأغاني الوطنية ، لم يعد يرى الا آدميين أو بالأحرى هاتفين ، اختفت الارض وتوارت
الجدران وتعالى الهتاف لسعد في كل مكان كأنما الجو قد انقلب اسطوانة هائلة
تدور بلا توقف مرددة اسمه . . .^٢ ويعلق أحمد صورة سعد تحت البسطة بسعد
أن ذهب زمن الخوف ، ويوح فهمي بأسرار اشتراكه في الثورة لوالدته ، ويسأل

١ . نفسه ، ص ٥٥٦ .

٢ . نفسه ، ص ٥٥٣ - ٥٥٤ .

والده الصفح عنه لما بدر منه سا بقا من عصيان . ويقول الأب لنفسه : " ليت (أي فهمي) اشترك في الأعمال الكبيرة ما دام الله قد كتب له العمر حتى اليوم ، سأقول من الآن فصاعدا انه خاض غمار الثورة... "١ ولكن النهاية الحزينة كانت تنتظر فهمي ان استشهد في المظاهرة السلمية التي قامت ابتهاجا بالافراج عن سمس . و يلتقط محفوظ بطريقة رائعة حقا مشاعر فهمي أثناء المظاهرة وحتى سقوطه ،

... أهرب ، ما من الهرب بد ، ان لم يقتلك الرصاص قتلتك الأذرع والأقدام . هم بالهرب او بالتراجع او حتى التحول عن موقفه ولكنه لم يفعل شيئا ، ما وقوفك ، وقد تشتت الجمع ؟ ! في غلاء أنت ، أهرب . صدرت عن ذراعيه وساقيه حركة بطيئة وانية متراخية . ما أشد الضوضاء ، ولكن بم علا صراخها ؟ هل تذكر ؟ ما أسرع ما تغفلت منك الذكريات . ماذا تريد ؟ أن تهتف ؟ أي هتاف ؟ او هوندا ؟ فحسب . من ؟ ما ؟ في باطنك يتكلم ، هل تسمع ؟ هل ترى ؟ ولكن أين ؟ لا شيء ، لا شيء ، ظلام في ظلام ، حركة لطيفة تطرد بانتظام كدقات الساعة ينساب معها القلب . . . تصاحبها وشوشة ، باب الحديقة . . . أليس كذلك ؟ يتحرك حركة تموجية سائلة ، يذوب رويدا ، الشجرة السامقة ترقص في هواده ، السماء . . . السماء ؟ منبسطة عالية . لا شيء ، الا السماء هادئة باسمية يقطر منها السلام . . . ٢

وبموت فهمي في أعقاب الافراج عن سمس ينتهي الجزء الأول من الثلاثية وتنتهي مرحلة من مراحل كفاح الطبقة الوسطى المصرية كان الاحتلال فيها المدو الاول . ولكن شبح الاحتلال لا يغيب تماما بعد ذلك بل يظل يظهر مساندا للأرستقراطية وحاكما فعليا له الكلمة الأخيرة برغم كل مظاهر الاستقلال .

١ . نفسه ، ص ٥٦٤ .

٢ . نفسه ، ص ٥٦٢ .

وقد لاحظنا في هذه المرحلة الأولى العاطفية التي اتسمت بها مواقف أفراد هذه الطبقة ، وتقلب مشاعرهم السريع والحنيف بين اليأس والأمل وفقا لتقلب الأوضاع ، واتجاههم نحو عبادة البطل وربما كان ذلك تعويضاً لشعورهم بالمجزأة والاحتلال وكبت للمشاعر طويل . كذلك لاحظنا اختلاف موقف فهمي الطالب المثقف من الثورة والعمل السياسي عن موقف والده حيث اتجه الى المشاركة الفعلية في الثورة وأخذ مفهوم الوطنية معنى أكثر تعديداً عنده ، وان كان ظل غير واضح الهدف تماماً ولم يخل شعوره من رومانسية وعاطفية .

الطبقة الوسطى والأرستقراطية - الصراع على السلطة

كان على الوفد الممثل للطبقة الوسطى المصرية أن يحارب على جبهتين بعد توليه الحكم في أعقاب فوزه الساحق في انتخابات يناير ١٩٢٤ : جبهة الانكسار ، وجبهة الملك والأرستقراطية المصرية التي شكلت لنفسها حزبا أسمته حزب الأحرار الدستوريين . ويصور محفوظ في الجزء الثاني من الثلاثية النزاع الذي كان قائماً بين الوفد والأحرار الدستوريين من خلال مناقشات كمال عبد الجواد مع أصحابه : حسن سليم واسماعيل لطيف وحسين شداد . فسعد زغلول لم يكن ، في نظر حسن سليم ، إلا مهرجاً شعبياً يسخر من سياسته ومأثوراته البلاغية " منوها في الوقت نفسه بعظمة عدلي وثروت ومحمد محمود وغيرهم من الأحرار الدستوريين الذين لم يكونوا في نظر كمال إلا " خونة " أو انجليز مطرشين !^١ وقطع سعد للمفاوضات مع الانكليز هو ، في رأي كمال ، موقف وطني جدير بسعد حقاً ، لأن سعد " طالب بحقوقنا الوطنية مترفعاً عن المساومة . ثم قطع المفاوضة حين وجب قطعها ، وقال قولته الخالدة : " لقد دعونا الى هنا لكي ننتحر ، ولكننا رفضنا الانتحار ، وهذا

١. قصر الشوق ، ص ١٢٠ .

كل ما جرى^١. في حين يخلق اسماعيل لطيف بقوله: " لو قبل أن ينتحر لتوج حياته بأجل خدمة يمكن أن يؤديها الى بلاده^٢. وحسن سليم يعتبر أن الأحرار الدستوريين الذين يعملون في صمت حققوا للوطن الفائدة الوحيدة التي جناها في تاريخه الحديث - أي الغاء الحماية - وأن سعد لم يفد بكلامه الأمة شيئاً^٣. ويرد عليه كمال ،

— أنت تقل من شأن الكلام كأنه لا شيء ، الحق أن أخطر ما تخضع عنه تاريخ البشرية من جلائل الأمور يمكن ارجاعه في النهاية الى كلمات ، الكلمة العظيمة تتضمن الأمل والقوة والحقيقة . نحن نسير في الحياة على ضوء كلمات ، على أن سعد ليس صانع كلمات فحسب ، ان سجله حافل بالأعمال والمواقف !^٤

وواقع الحال في مصر يمكن تلخيصه ، في رأي حسن سليم ، في كلمتين " وهما : أن سعد يأبى أن يقوم في مصر من يتكلم باسمها غيره ولو كان خير الرجال وأحكمهم ! " ويتلخص ، في رأي كمال ، في كلمة واحدة هي " أن ليس في مصر من يتكلم باسمها الا سعد ، وأن التفاف الأمة حوله جدير في النهاية بأن يبلغ بها ما ترجو من الآمال . . . " ^٥

ويظهر محفوظ الاحتقار الذي تكنه الارستقراطية للشعب المصري ، وتعاليتها عليه ويأسها من صلاح شأنه . فاسماعيل لطيف يرى أن من يتعب نفسه في الكلام عن اصلاح مصر كالنافخ في قربة مثقوبة^٦. ويخلق كمال على كلامه ،

١ . نفسه

٢ . نفسه

٣ . نفسه

٤ . نفسه ، ص ١٧٠ - ١٧١ .

٥ . نفسه ، ص ١٧٤ .

٦ . نفسه ، ص ١٧١ .

— انت لا تهمل السياسة في شي*، لكن مزاحك يفصح أحيانا عن موقف "قثة" من المحسوبين على المصريين كأنك ناطق بلسانهم، تراهم يائسين من نهوض الوطن؛ يأس الاحتقار والتمالي لا يأس الطموح والتطرف، ولولا أن السياسة مطية لأطماعهم لا عزلونها كما تفعل أنت! ١

ويمثل حسين شداد فئة أخرى من الارستقراطية المصرية المتعالية. فهو يحب أن يكون في فرنسا أكثر من أن يكون في مصر لأن مصر، في رأيه، "وطن أجل مخلفاته قبح وجثث" ٢ ويتعالى على السياسة لأنها، في رأيه، "تفسد الفكر والقلب، ينبغي أن تملو عليها حتى تتراعى لك الحياة ميدانا لا نهائيا للحكمة والجمال والتسامح، لا معترك صراع وكيد... ٣ ويرد عليه كمال،

— الحياة هي هذا كله، هي الصراع والكيد والحكمة والجمال، فأني وجه تجاهلته من وجوهها تفقد به فرصة لاستكمال فهمك لها وقد تركت على التأثير فيها بما يوجهها نحو الأحسن. لا تحتقر السياسة أبدا، فالسياسة هي نصف الحياة، أو هي الحياة كلها إذا عدرت الحكمة والجمال ما فوق الحياة... ٤

على أن تعالي حسين على السياسة وادعاه انه محايد لا من الوفديين ولا من الدستوريين لا يخفي شموه الطبقي المتعالي،

... سعد وعدلي وعدلي وسعد ما أسخف هذا كله، على أنه اذا كان سعد وعدلي سيين عندي في الناحية السياسية فأنني لا أراهما كذلك كرجلين، ان لا يمكن أن أتجاهل ما يمتاز به عدلي من كريم الأصل وعظيم الجاه والثقافة، أما سعد — واياك أن تغضب — فما هو الا أزهي قديم... ٥

١. نفسه،

٢. نفسه، ص ١٦٨.

٣. نفسه، ص ١٧١.

٤. نفسه، ص ١٧٢.

٥. نفسه

وهكذا فان محفوظ لا يغفل الجانب الاجتماعي من الصراع بين الطبقة الوسطى والارستقراطية والذي بلغ مداه في التنافس بين كمال وحسن سليم على حب عابدة شداد ومخاطبة حسن لكمال بقوله : " فلندعها توازن بين ما قال ابن التاجر وما قال ابن المستشار!"^١

ويصاب الوفد بنكسة بعد اخفاق محادثات سعد مع بريطانيا ، ومقتل السير لي ستاك سردار الجيش المصري الانكليزي الجنسية في نوفمبر ١٩٢٤ ، واستقالة وزارة سعد على اثر ذلك . ويظهر موقف الأحرار الدستوريين من الحادث ما يقوله حسن سليم : " ان هذا الاعتداء مظهر للكراهية التي يضرها البعض - ومنهم القتلة - للانجليز ، وسعد زغلول هو المسئول الأول عن تهيج هذه الكراهية!"^٢ ويلتقون بذلك مع الانكليز الذين عبروا عن الرأي ذاته^٣ . وتبدأ الارستقراطية المصرية والملك بتدهيم مراكزهم بعد ذلك . فيؤلف زيور باشا الذي كان محسوبا على الوفد الوزارة الجديدة التي خضعت لشروط بريطانيا ، وبدأت المبعث بالدستور . ويبدأ الملك خطة لهدم الوفد من الداخل بحته العناصر الارستقراطية في الوفد على الخروج منه . ويلعب حسن نشأت باشا وكيل الديوان الملكي دورا هاما في تنفيذ خطة الملك " فقد أخذ كثيرون من شيوخ ونواب الهيئة الوفدية يستقيلون منها ويسندون سبب استقالتهم الى ما ذاع أخيرا من أن الحزب الوفدي تحيط به الشكوك من جهة الاخلاص الواجب لجلالة الملك"^٣ . كما يجني تأليف حزب الاتحاد الموالي للملك

١ . نفسه ، ص ٢٤٦ .

٢ . نفسه ، ص ٢٠٠ .

٣ . رمضان ، تطور الحركة الوطنية . . . ، ص ٥٧٢ .

والذي كان الهدف منه "امتصاص العناصر الخارجة على الوفد ، ومعها شتات الانتهازيين من كبار الموظفين والضباط المحالين على المماش والموالين للقصر، ليتولى ملء الفراغ الذي سوف يخلفه الوفد بعد سقوطه المتوقع في الانتخابات"^١ . ويشير محفوظ في قصر الشوق الى هذه الأحداث والى انعكاسها على نفسية كمال الوفدي التحمس،

... ومن عجب أنه وجد في الحياة السياسية صورة مكسرة لحياته ، فكان يطالع أنباءها في الصحف وكأنما يطالع مواقف مما مر به في بين القصرين والعباسية . هذا سعد زغلول — مثله هو شبه سجين وهدف للطعنات الباغية والحملات الظالمة وخيانة الأصدقاء وغدرهم ، وكلاهما — هو ، وسعد — يكابدان أحزاناً من اتصالهما بأناس علموا بأرستقراطيتهم وسفلوا بفعالهم . تقمص شخص الزعيم فسي كدره كما تقمص حال الوطن في قهره ، وكان يلاقي الموقف السياسي وموقفه الشخصي بماطفة واحدة وانفعال واحد ، فكأنما كان يعني نفسه وهو يقول عن سعد زغلول "أتلىق هذه المعاملة الظالمة بهذا الرجل المخلص؟"؛ وكأنما كان يعني حسن سليم وهو يقول عن زيور "خان الأمانة واستحل القبيح في سبيل الاستيلاء على الحكومة؟"؛ وكأنما كان يعني عايذة وهو يقول عن مصر "هل تخلت عن رجلها الأمين وهو يذود عن حقوقها؟!"^٢

وهكذا يلعب الوضع السياسي دوراً في كشف أزمة كمال النفسية وتسير مشكلته الخاصة في خط مواز لمشكلة الوفد — الوطن المامة .

١. نفسه ، ص ٥٧٠ .

٢. قصر الشوق ، ص ٢٥٣ .

وسهد ضرب الملك لحزب الأحرار الدستوريين بعد ذلك لائتلاف الأحزاب السياسية لمواجهة خطر الاوتقراطية. ويشير محفوظ الى ذلك الائتلاف، والسى اجتماعات الوفد والأحرار، وخوضهم الانتخابات معا^١ وتحول الوفد عن خطة التطرف والتهيج الى خطة المسالمة والاعتدال، وهي السياسة التي سبظل الوفد ينتهجها طوال البقية الباقية من حياة سعد باشا زغلول^٢ والمتشلة في تحاشيه الاصطدام مع الانكليز وتنازل سعد عن الوزارة الى خصمه القديم عدلي. وكان ذلك كله مصدر خيبة أمل لكامل^٣.

وينتهي الجزء الثاني من الثلاثية بوفاة سعد زغلول في أغسطس ١٩٢٧. ويحزن كمال لموته "... اذن مات سعد. النفى والثورة والحرية والدستور مات صاحبها. كيف لا يحزن وخير ما في روحه من وحيه وتربيته^٤". وتستمر بعد وفاته معارك الوفد مع الانكليز والارستقراطية والملك دون أن يفلح في تحقيق نصر حاسم عليهم، وتعانى الرجوازية المصرية من الاعتداءات المتتالية على الدستور، ومن الصراع الحزبي العقيم، ومن الفساد السياسى والاستبداد. وهذه هي المرحلة التالية التي يتعرض لها محفوظ في الجزء الثالث من الثلاثية وفي قصصه الواقعية الأخرى.

١. رمضان، تطور الحركة الوطنية، ص ٦٠٦.

٢. قصر الشوق، ص ٣٨٣.

٣. نفسه، ص ٤٦٤.

الطبقة الوسطى في مواجهة الفساد السياسي والاستبداد

يلخص كمال في بداية السكرية الوضع السياسي في مصر في منتصف الثلاثينات مستعرضا ما مرت به البلاد في السنين السابقة من تجارب سياسية قاسية وميسرة، جعلت الشعب يوقف المعركة ويكتفي بالصبر والسخرية،

... وكان كالأخريين قد امتلأ بهمارة التجارب السياسية السيئة خلفتها الأعوام السابقة. أجل "لقد عاصرت عهد محمد محمود الذي عطل الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد واغتصب حرية الشعب في نظير وعده له بتجفيف البرك والمستنقعات! كما عشت سنين الارهاب والمهمل السياسي التي فرضها اسماعيل صدقي على البلاد. كان الشعب يشق في قوم ويريدهم حكاما له ولكنه يجد فوق رأسه دائما أولئك الجلادين البغضا، تحميمهم هراوات الكونستبلات الانجليز ورصاصهم، وسرعان ما يقولون له بلفسنة او بأخرى أنت شعب قاصر ونحن الأوصياء! والشعب يخوض الممارك دون توقف فيخرج من كل وهو يلهث، حتى اتخذ في النهاية موقفا سلبيا شعاره الصبر والسخرية، فخلا العبدان الا من الوفديين من ناحية والطفاة من ناحية أخرى، وقنع الشعب بمجلس المتفرج وراح يشجع رجاله في همس دون أن يمد لهم يدا^١...

ويعلق أحمد وصحبه على ذلك الوضع ايضا في أحاديثهم،

— نحن في عام ١٩٣٥، ثماني سنوات مرت على موت سعد، وخمسة عشر عاما منذ الثورة، ولا يزال الانجليز في كل مكان، في الثكنات والبوليس والجيش وشتى الوزارات، الامتيازات الأجنبية التي تجعل من كل ابن لبوة سيدا مهابا ما زالت قائمة، ينبغي أن تنتهي هذه الحال المؤسفة..

— ولا تنسى الجلادين أمثال اسماعيل صدقي ومحمد محمود
والأبراشي !^١

كما يشيدون بموقف النحاس من عودة دستور ١٩٢٣ " . . . ما رأيكم في مصطفى النحاس ؟ !
الرجل الذي لم تؤثر فيه دموع الملك الشيخ المريض فأبى أن ينسى ثانية واحدة مطلبه
الأسنى " دستور سنة ١٩٢٣ " . . .^٢ ويردد كل منهم هذه الحادثة بطريقته الخاصة ،
واضعين ثقتهم التي لا نهاية لها في النحاس وآملين في زهاب الانكليز وانتهائها^٣
نفوذ الخواجات^٤ .

ويشير محفوظ الى تصريح هور في ٩ نوفمبر ١٩٣٥ الذي رفض فيه أهم مطلبين
لمصر: عقد المعاهدة وعودة الدستور^٥ . والى الحرب التي شنها الوفد على
الانكليز بعد هذا التصريح الذي خيب أمله في أن تغير السياسة البريطانية موقفها
من هذين المطلبين ، وذلك في المؤتمر الذي عقد بمناسبة الاحتفال بعيد الجهاد
الوطني في ١٣ نوفمبر ١٩٣٥ .^٥ كما يشير الى المظاهرات التي قامت ردا على ذلك
التصريح والتي استشهد فيها طلبة من الآداب والزراعة ودار العلوم . وكيف أن
تلك المظاهرات آتت ثمارها ، فتراجعت انكلترا ، وقبلت المفاوضة^٦ .

-
- ١ . نفسه ، ص ٥٥ .
 - ٢ . نفسه ، ص ٤٩ .
 - ٣ . نفسه ، ص ٤٩ — ٥١ .
 - ٤ . راجع نص التصريح وأصداءه في رمضان ، تطور الحركة الوطنية . . . ، ص ٢٨٢ — ٢٨٦ .
 - ٥ . السكرية ، ص ٣٩ — ٤٦ . وفيها وصف للمؤتمر وللمظاهرة التي تبعتها والتي أطلق
خلالها الجنود الانكليز والمصريون الرصاص على المتظاهرين فقتلوا عددا كبيرا منهم ،
وذلك من خلال مشاعر كمال .
 - ٦ . بداية ونهاية ، ص ٣٤ — ٣٥ .

وأسفرت المفاوضة التي جرت بين وفد يمثل كافة الأحزاب المصرية وعلى رأسها الوفد وبين الإنكليز عن عقد معاهدة ١٩٣٦ تحت ضغط حالة دولية خطيرة. وهي المعاهدة التي "أزالت التحفظات ومهدت الطريق لالغاء الامتيازات الأجنبية، وحددت مدة الاحتلال بمدد قصره على منطقة معينة" ١ ولكن هذا الانتصار الهزيل لم يكن ليفضي على الفساد السياسي الذي لم يسلم الوفد نفسه منه. فالشعب لم يستطع أن يرى الشيطان (صدقي) ضمن هيئة المفاوضات في لباس الوطنيين الأحرار ٢ ولم يكثر كثيرا للمعاهدة ٣ فضلا عن ذلك، فإن هذا الانتصار لم يدم طويلا، لأن الصراع الحزبي والشخصي ما لبث أن عاد يلوث الجو السياسي في البلاد. وعاد الملك والأرستقراطية يتآمرون على الوفد الذي توالى الانشقاقات عنه، وعاد الإنكليز يتدخلون في شؤون البلاد. ويشير الكاتب في هذا المجال إلى خروج النقراشي من وزارة الوفد وبالتالي من الوفد في سبتمبر ١٩٣٧، كما يشير إلى اقالة النحاس في ديسمبر ١٩٣٧، التي اشترك في تدبيرها الملك والأرستقراطية والخارجون على الوفد،

... فاروق ليس المسئول وحده، ولكن دبرها أعداء الشعب التقليديون، فهذه يد علي ماهر ومحمد محمود، وممن المبكي أن ينضم إلى أعداء الشعب اثنان من أبناء ماهر والنقراشي، ولو تطهر الوطن من الخونة لما وجد الملك ممن يمكنه من هضم حقوق الشعب. ٤

١. السكرية، ص ٤٣.

٢. نفسه، ص ١١٥.

٣. نفسه، ص ٧١. حديث بين شلة من الموظفين يقابل خلاله ذكر أحد هم للمعاهدة بالنكته.

٤. نفسه، ص ١٧٤ - ١٧٥.

كذلك يشير محفوظ الى انتخابات ابريل ١٩٣٨ المزورة التي لم يزد مجموع الناجحين فيها من الوفدين على ثلاثة عشر حتى أن النحاس نفسه ومكرم عبيد سقطا . ويعلق كمال على ذلك بقوله ،

— انتخابات مزورة، كل شخص في البلد يعلم بأنها مزورة ، ومع ذلك يعترف بها رسميا وتحكم بها البلاد ، ويعني هذا أن يستقر في ضمير الشعب أن نوابه لصوي سرقوا كراسيهم ، وأن سلطاته وحكومته مزيفة مزورة ، وأن السرقة والتزيف والتضليل مشروعة رسميا ، أفلا يعذر الرجل العادي اذا كفر بالصادي* والخلق وآمن بالتزيف والانتهازية ؟^١

ويشير الى عودة النحاس الى الحكم في فبراير ١٩٤٢ بعد تدخل الانكليز ضد الملك وتقديسهم ائذارهم المشهور ، والى اختلاف الناس في أمر قبول النحاس الوزارة واعتبار بعضهم أنه أخطأ واعتبار البعض الآخر أنه أنقذ البلاد^٢ .

ويحظى تصوير الفساد السياسي بقدر كبير من اهتمام محفوظ في قصصه الأخرى ولا سيما في القاهرة الجديدة حيث نسمع محجوب يتحدث عن فساد النظام النيابي وسائر المؤسسات الحكومية ،

— النائب الذي ينفق مئات الجنيهات قبل أن ينتخب لا يمكن أن يمثل الشعب الفقير ، والبرلمان في ذلك شأنه شأن المؤسسات الأخرى . أنظر الى قصر العيني مثلا ، فبالاسم مستشفى الشعب الفقير ، وبالفعل حقل تجارب لا جبرا* اختبارات الموت على الفقرا*^٣ . . .

١ . نفسه ، ص ١٨٤ — ١٨٥ .

٢ . نفسه ، ص ٢٨٤ — ٢٨٦ . احاديث كمال عبد الجواد ورياض قلندس .

٣ . القاهرة الجديدة ، ص ٤٦ .

ونسلم سالم الاخشيدي الخبير بشؤون فساد الدولة يتحدث متفلسفا عن مصر البلد
المسلوب الذي يتولى مسئولياته الضعفاء الأغبياء^١. كما يتحدث عن نفوذ الأوانس
مثل المطربة الأنسة دولت " ومنطقة نفوذها السكك الحديدية ووزارة الحربية وبعض
الدوائر الكبرى " اللواتي ييمن المناصب والوظائف لطلابها^٢. وعن نجاح الشباب
الشاذ في الحصول على أعلى الوظائف بسهولة^٣. ويعلق محجوب على الوضع السياسي
والزيف "... اختيار الموظفين تزيف، رسو المعطيات تزيف، ألعاب البورصة تزيف،
الألقاب والنياشين تزيف، الانتخابات نفسها تزيف "...^٤. وليس أدل على
التزيف من الحفلة التي أقامتها السيدة اكرام نيروز منشئة جمعية "الضريرات" المغرمة
بالشهرة والثناء وصاحبة النفوذ الواسع الذي يمتد الى وزارات كثيرة وأحزاب كثيرة^٥،
والتقرير الذي أعده محجوب عن تلك الحفلة قالها الحقائق رأسا على عقب طلبا لرضى
السيدة صاحبة الحفلة. يكتب معجوب أن اكرام نيروز من أسرة عريقة في الوطنية وأنها
زوج وفية وأم بارة وأنها قد اغترغت من الثقافتين العربية والفرنسية، وقامت بمشروعات
خيرية مستجيبة ومدعوها لماطفة الخير. أما الحقيقة فهي أنها كريمة رجل من
صناع الاحتلال، مغرمة بالشبان، متفوقة في الفرنسية وعاجزة في العربية، وقد حولت
دار الضريرات الى حانة، واهتمت ومدعوها بكل شيء الا الضريرات^٦. ويلفت
نظر محجوب في الحفلة "شخص غريب المنظر، ضخم الجسم في غير تناسب، مكرش، كأنه
مادة حيوانية لم تسوّ بعد، يمشي منفرج الساقين كأنه ذودا". بيد أنه بدا أثيرا

١. نفسه، ص ٣٢.

٢. نفسه، ص ٨٥ - ٨٦.

٣. نفسه، ص ٨٦. ويتحدث احمد بدير عن الموضوع ذاته ص ٩٧ - ٩٨.

٤. نفسه، ص ١٠٠.

٥. نفسه، ص ٨٦.

٦. نفسه، ص ١٠١.

محبوبها مكرما ، يحادث العظام بغير كلفة ، ويمارحهم ويعلو صوته بينهم بغير مبالاة^١ ويخبره أحمد بدير صديقه الصحفي أن ذلك الشخص المدعو غزوز ضارم كان يوما موظفا محترما ، ثم اضطر الى الاستقالة لأسباب خلقية ، فاشتغل بالأعمال الحرة ، وعرفه أناس من ذوي النفوذ ، فأعيد الى الخدمة وسار قدما . . ولكنه لم يهجر أعماله الحرة^٢ ! و"عمله الحر شقته الأنيفة . فيها مائدة للقمار . وفيها الحسان الكواعب الحور^٣ !". وفي ظل ذلك الوضع السهري صار الغدر هو القاعدة فالموظفون "يقبلون على صاحب السلطان ما أقبلت الدنيا عليه ، فاذا أقل نجمه فأكرمهم من يدبر عنه دون أن ينشب فيه أظفاره . . .^٤

✽ ويصور محفوظ في زقاق المدق حقيقة العمل السياسي والحزبي في مصر وما طرأ عليه من فساد ،

— السياسة حقيقة بأن تخرب بيتنا وتلتهم تجارتنا . ستجسد نفسك ملزما بالانفاق على الحزب أضعاف ما تنفق على نفسك وأهلك وتجارتك . وعسى أن ترشح للبرلمان فتستغفرق الانتخابات آلافا من أموالك دون جدوى ثمنا لكيسي غير مضمون ، وهل البرلمان في بلادنا الا كمرين بالقلب تهدده السكتة في أية لحظة ! ثم أي حزب تختار ؟ اذا اخترت حزبا غسيرا الوفد أصففت مكانتك في الوسط الذي تعمل فيه ، واذا اخترت الوفد لم تأمن رئيس وزارة كصديقي باشا يجعل تجارتك هشيما تذروه الرياح^٥ .

ويعطي الكاتب صورة شبه كاريكاتورية لذلك العمل من خلال مهرجان انتخابي^٦ ، يشي مظهر المرشح غامة بأن بطنه أهم بكثير من رأسه " وقد أحدث ظهوره اهتماما كبيرا

١ . نفسه ، ص ٩٦ — ٩٧ .

٢ . نفسه ، ص ١٢٥ .

٣ . زقاق المدق ، ص ٧١ .

٤ . نفسه ، ص ١٥٦ — ١٦٥ .

في الزقاق وما يحيط به ، لأنهم اعتبروه عروس الليلة ، وأملوا من وراء " زفته " خيرا كثيرا ، خصوصا وأنهم لم يفيقوا بعد من الصدمة التي دهمتهم في الانتخابات السابقة بفوز مرشح الدائرة بالتركية ! وبطانته جلها من رافعي الأثقال بنادي المدارس الرياضي ، ونراه يقدم مبلغا من المال للمعلم كرشة ليضمن صوته وأصوات من يلون به من المعلمين وعمالهم . ويدّعي أنه مرشح مستقل مع أنه ، في الحقيقة ، مرشح الحكومة . ويمدّ مستمعيه بالحلوان إذا فاز في الانتخابات . ويسأل الشيخ درويش أن يدعو له فيرد هذا بصوت منخفض " الله يخرب بيتك . . ! " أما الحفلة التي أقامها مؤهده له فقد بدأت بالقرآن الكريم ، ثم النشيد الوطني ، فمونولوجت يغني وامرأة ترقص شبه عارية وهي تهتف المرة تلو المرة " السيد ابراهيم فرحات . . ألف مرة . . ألف مرة " وجعل الرجل المشرف على المكبرات يصيح في المذياع . السيد ابراهيم فرحات أحسن ناسب . . ميكروفون بهلول أحسن ميكروفون .

وتمثل حياة المعلم كرشه تطور الوضع السياسي في مصر بين عام ١٩١٩ والحرب العالمية الثانية ٣ اشترك في ثورة سنة ١٩١٩ اشتراكا فعليا عنيفا ، وقد نسب اليه الحريق الكبير الذي التهم الشركة التجارية اليهودية للسجاير بميدان الحسين ، وكان من أبطال المعارك العنيفة التي دارت بين الثوار من ناحية وبين الأرمن واليهود من ناحية أخرى ، ولما أن غمدت الثورة الدموية وجد فيما جد من معارك انتخابية ميدانا جديدا على ضيقه لنشاطه وحماسه ، فبذل في انتخابات سنة ١٩٢٤ جهدا مشكورا وصمد ببطولة لمفريات انتخابات سنة ١٩٢٥ وكان عام ١٩٣٦ آخر عهده بالسياسة . فطلقها بحد ذلك وتزوج التجارة ، ورصد الانتخابات فيما تلا ذلك من عهود كما يرصد الأسواق النافقة ، وانقلب نصيرا لمن " يدفع أكثر " وجعل يعتذر عن مروقه بما طرأ على الحياة السياسية من فساد ، قائلا : انه إذا كان المال غاية المتناهبين في ميدان الحكم فلا خير أن يكونون

كذلك غاية النابخين المساكين ! وفصلاً عن هذا وذاك فقد لحقه الفساد هو نفسه ، وغلبيه الذهول ، وركبته الشهوات ، ولم يبق في روحه من الثورة القديمة الا ذكرى غامضة . . . ولم يعد يعبأ بشي* من بعد ذلك الا "الكيف" و "الهوى" . . . لم يعد يكره أحداً ، لا اليهود ولا الأرمن ولا الانجليز أنفسهم ، ولم يعد يحب أحداً كذلك . . . ١*

وتؤكد أحداث السكرية أن الوفد نفسه لم يسلم من الفساد . فمعد الرحيم باشا عيسى الوزير الوفدي الذي يعلق صورة سمد يستقبل في بيته العديد من الشبان الشاذين ، ويعينهم في مناصب كبيرة . وهكذا يسيطر اليأس على النفوس برغم حكم الوفد ،

— . . . من عادة النواب أن يثرثوا عند نظر الزانية ، ومن عادة الحكومة أن تمتد بالنظر في تحقيق رغبات النواب في أقرب فرصة ، ومن عادة هذه الفرصة ألا تقترب أبداً . . .

— طول عمرهم يعدون باخراج الانجليز ، وافتح جامعة جديدة ، وبتوسيع شارع الخليج ، فهل تتم شي* من هذا . . . ٢*

أما الاستبداد فصورته ماثلة أبداً ، وهكذا نرى كمال — الذي "علمته الحياة السياسية في مصر أن يمقت الدكتاتور من صميم قلبه" — يشكو قرب نهاية السكرية من الأحكام العرفية وغياب القانون ،

— يجب أن تعبد الحكومة أولاً كي تميش مطمئناً . .
— على أي حال الاعتقال أخف في نظري من المحاكمة !

١ . نفسه ، ص ١٦٠ — ١٦١ .

٢ . السكرية ، ص ٣٤١ .

— هذا رأي ، ولكن متى تنكشف الغمة ؟ متى ترفع الأحكام
المرفية ؟ متى يعود السلطان الى القانون الطبيعي
والدستور ! ، متى يعامل المصريون كأمميين ؟ ! ١

وكانت هذه الأوضاع أرضا خصبة لنمو ظاهرة الاغتراب السياسي الذي يعرفه
حليم بركات فيقول انه عدم رضى ورفض للأوضاع السياسية ونوع العلاقات القائمة بين
المواطن والدولة . والانسان المغترب سياسيا لا يشعر أنه منسجم مع حكومته ويحس
بهوة فسيحة تفصل بين الأوضاع السياسية الراهنة والأوضاع السياسية التي يتمناها . . . ٢
ويظهر ذلك بوضوح عند كمال عبد الجواد الذي امتلأ حلقه بمرارة التجارب السياسية
التي مرت بها مصر بعد اجها فثورة ١٩١٩ فصار يشعر بالخربة واللا انتماء لمجزه عن تغيير
الواقع الذي يعرف بشاعته معرفة جيدة ، واختار الانسحاب حلا لاغترابه . ولكن تعلقه
بحزب الوفد يخفف من اغترابه ، فنراه يحضر المؤتمر الوطني الذي عقده الوفد للرد على
تصريح هور متغلبا ولو لفترة قصيرة على شكوكه ،

. . . ثم لاح مصطفى النحاس فوق المنصة وهو يحيي الألوف
بابتسامة وضيئة ويدين قويتين . وتطلع اليه بعينين اختفت
منهما نظرة الشك الى حين ، وكان يتساءل كيف أومن بهذا
الرجل بعد أن فقدت الايمان بكل شي ؟ . لأنه رمز الاستقلال
والديمقراطية ؟ ! . مهما يكن من أمر فان التجاوب الحار المتبادل
بين الرجل والشعب ظاهرة جديدة بالنظر ، وهي بلا شك قوة
خطيرة تلعب دورها التاريخي في بناء القومية المصرية . ٣

١. نفسه ، ص ٣٦٢ .

٢. بركات ، ٣ اغتراب والثورة في الحياة المصرية ، ص ٢٥ .

٣. السكرية ، ص ٤٢ — ٤٣ .

"هكذا نجح اشتراكه في العيد الوطني في تجديد نفسه فلم يكن يهمه في تلك اللحظة الا أن تجيب مصر على تصريح هو اجابة حاسمة كاللكمة القاضية"^١. ويظل خط سير أزمته النفسية موازيا لخط سير الوضع السياسي في مصر، فتتفاقم تلك الأزمة كلما تفاقم الفساد السياسي والاستبداد وتخف كلما ظهرت بوارج أمل بتحسين الوضع ويظسل يؤمن بحقوق الشعب بقلبه برغم شكه العقلي في كل شي^٢.

كذلك يجد رياض قلدس القبطي في الوفد ملاذا من اغترابه السياسي واغترابه القومي الناشي^٣ عن انتمائه الى دين الأقلية حيث أن الفصل بين القومية وبين الدين لم يكن تاما بعد فيما يبدو - لأن الوفد "حزب القومية التي تجمل من مصر وطنا حرا للمصريين على اختلاف عناصرهم وأديانهم". فلما أقيل مكرم عبيد مثل الأقباط من الوزارة الوفدية ومن الوفد في يولييه ١٩٤٢ "شعر الأقباط بأنهم طرودا من الوفد، وهم يتلصسون الأمان، وأخشى الا يظفروا به أبدا"^٤ ويعلق رياض على ذلك،

... لقد جاءتني السياسة أخيرا بمقعدة جديدة كمقعدة الدين،
فكما كنت أنبذ الدين بعقلي وأميل اليه بقلبي بصفته رابططة
قومية فكذلك سأنبذ الوفد بقلبي وأميل اليه بعقلي، اذا قلت
اني وفدي كذبت قلبي واذا قلت اني عدو للوفد خنت عقلي، انها

١. نفسه، ص ٤٤.

٢. يقول محفوظ في مقابلة اجريت معه ان كمال "ربما كان لا منتميا ولكنه لا منتمي من نوع خاص ان انه نزح الى الانتماء بشكل واضح وانساني وان يكن غير محدد المعالم" (شكري، نجيب محفوظ يتحدث...، ص ٦٨). ويملل شكري ذلك بأن المرحلة الحضارية التي بلغها العالم العربي لا تسمح بظهور اللامنتسبي العربي المماثل للامنتسبي الغربي لأن الحصيلة الحضارية للمنتسبي العربي خوا^٥ من أية مكاسب ديمقراطية (شكري، المنتسبي، ص ١٥).

٣. السكرية، ص ٢٩٦.

كارثة لم تخطر لي على بال ، والظاهر انه مقضي علينا نحن
الاقباط بأن نعيش في شخصيات منقسمة أبدا ، لو كانت مجموعتنا
فردا واحد لجن !^١

ولا يبدي أبطال محفوظ الآخرون اهتماما كبيرا بالسياسة ، ويشغلون بمشكلاتهم
الخاصة عن مشكلة الوطن ، فيرضخون للأمر الواقع ويسعون لجني المكاسب من الانغماس
في جو الفساد السائد أو يدعون الترفع عن السياسة ، مع أنهم جميعا يعمون المشكلات
السياسية التي تعاني منها مصر والتمثلة في الاحتلال وتسلط الارستقراطية والفساد
السياسي والاستبداد . ولكن الأوضاع التي أنتجت أولئك الأبطال المفترسين
سياسيا والذين اختاروا حلولا سلبية لاغترابهم ذاك ، كانت ، في الوقت ذاته ، مهددة
لظهور نقيضها الذي سيتكفل بالقضاء عليها متحلا في الحركات السياسية الجديدة التي
أخذت تخلف حزب الوفد بعد أن عجز عن اتخاذ خط أكثر ثورية في الدفاع عن مصلحة
الشعب ومصلحة الطبقة الوسطى الصغيرة . وقد اختار أفراد هذه الحركات طريق
التمرد الثوري حلا لاغترابهم ومشكلات بلدهم وازدهرت حركاتهم في ظل ظروف الحرب
العالمية الثانية الصعبة . وهذه هي المرحلة الأخيرة من كفاح الطبقة الوسطى المصرية
التي يتعرض لها محفوظ .

التيارات السياسية الجديدة

أ - الإخوان المسلمون

* يرى صفران أن^٢ الشباب الوطني المثقف المنتمي الى الطبقات الوسطى وجد
في حركة الإخوان الوريث الرئيسي للقيادة الوطنية في وقت كان فيه الوفد يتعاون بشكل
مذل مع قوى الاحتلال التي جعلت من استقلال مصر مظهرا كاذبا ومثيرا للسخرية^٣ ،

١ . نفسه

وان "الهيئة المسيرة للحركة ضمت أعدادا كبيرة من المهنيين ولا سيما المعلمين ، ومن الشقّفين . " وأنه " يمكن اعتبار الحركة ردة فعل عنيفة للاخفاق الأيديولوجي للقادة المثقفين من مختلف الميول ، وللأخفاق السياسي - الاجتماعي لنظام الحكم الليبرالي " ١ .

ويرى عيساوي أن حركة الإخوان " تقدم جوابا يبدو مقنعا للمشكلات الرئيسية التي تحير ليس فقط المصريين بل سائر سكان الشرق الأوسط أيضا ؛ مثل تحسدي الاستعمار الأجنبي ، وعدم جدوى الصراع الحزبي حين لا تجسد الأحزاب أيّة برامج محدّدة بل تعكس فقط منافسات شخصية ، ومثل سيطرة الأجانب على النشاطات الاقتصادية ، والمشكلات المزعجة الناتجة عن تصادم الغرب مع الاسلام وعجز المؤسسات والهيئات الاسلامية التقليدية عن التصدي لها بنجاح ، وأخيرا وليس آخرا الحاجة الى تحريك القوة الكامنة للجماهير عن طريق اعطائها الأمل والمثال اللذين تفهمهما في عبارات مألوفة لديها مستمدة من الدين الاسلامي " ٢ .

أما كريستينا هاريس فتري " أن تأسيس الحركة في عام ١٩٢٨ كان النتيجة الطبيعية ، ونكاد نقول التي لا بد منها ، للتاريخ المصري خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . . . ففي مظهرها الاسلامي ، كانت الحركة ثمرة ردة الفعل المفالية في المحافظة تجاه الفزوفري المسيحي لمصر منذ منتصف القرن التاسع

١ . Safran, Egypt in Search of Political Community, P. 202 and P. 243

ويلاحظ عيساوي أن نغمة الأدب المصري في أواخر الثلاثينات كانت متشائمة ورجعية واسلامية تبتعد عن أوروبا الى ماضٍ مثالي وذلك بعكس أدب أوائل العشرينات الذي امتاز بنغمة واثقة وليبرالية فريضة علمانية .

Issawi, Egypt: An Economic and Social Analysis, P. 185.

Issawi, Egypt at Mid-Century, P. 269.

عشر. وفي مظهرها الوطني، كانت نتيجة الحركة الوطنية في مصر منذ عام ١٨٧٩ وحتى عام ١٩٣٦. وهكذا فإن "التفريب" و"التحديث" التدريجين للمجتمع المصري، مقرونين بالسيطرة الأجنبية البغيضة. حددا أيدولوجية الحركة، كما حددتها الأحوال الحياتية القاسية للجماهير المصرية المسلمة من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية. كذلك فإن الصراع الفكري المرافق في مصر القرن العشرين بين قوى المحافظة وقوى التحديث كان مركز نفوذها الخاص^١.

ومهما يكن من أمر ظروف نشأة الحركة في عام ١٩٢٨ على يد مدرسي حكومي وابن مصلح ساعات - عالم هو حسن البنا، فإن الواضح أن الحركة نمت بسرعة بمعد عام ١٩٣٦ "ذلك أن توقيع المعاهدة المصرية الانكليزية في تلك السنة، والصراع الذي قام بين الملك والوفد في السنوات التالية، جعل عقول الناس مستعدة لتقبل حركات جديدة خارج نطاق السياسة البرلمانية الحزبية"^٢. وهكذا، وقبل مرور سنوات عديدة، ضمت الحركة في عضويتها عددا كبيرا من طلبة الأزهر، والموظفين المدنيين وغيرهم من ذوي الرواتب، بالإضافة الى بعض الضباط والعديد من الجنود فضلا عن عمال المدن والفلاحين. كما انضم اليها العديد من الخارجيين من الوفد ومن جمعية الشبان المسلمين وجمعية مصر الفتاة^٣. واستفادت الحركة من ظروف الحرب العالمية الثانية وما رافقها من شقاء وعذاب في تعزيز نفسها والانتشار في كل أنحاء مصر^٤.

• ١ Christina Phelps Harris, Nationalism and Evolution in Egypt - The Role of the Muslim Brotherhood (Stanford: Mouton and Co., 1964), P. 14

• ٢ Issawi, Egypt at Mid-Century, P. 265.

• ٣ Harris, Nationalism and Evolution in Egypt, P. 158.

• ٤ Issawi, Egypt at Mid-Century, P. 266.

* وهكذا تبدو علاقة الطبقة الوسطى المصرية بالحركة واضحة. فمؤسس الحركة وجهازها القيادي ينتمون الى هذه الطبقة. كما أن عددا كبيرا من أعضائها كانوا من الطبقة الوسطى. ويتضح من الآراء الثلاثة السابقة أن الحركة قدمت برنامجا مقنعا من الناحية الحافضية على الأقل لحل المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي واجهتها هذه الطبقة، مثل مشكلة الاستعمار، والفساد السياسي، والضياع الفكري والاجتماعي الناتج عن التصادم مع الحضارة الغربية، والمشكلات الاقتصادية الناتجة عن سيطرة الأجانب على الاقتصاد المصري والتفاوت الشديد في مستوى المعيشة بين الأغنياء والفقراء. ويرد هذا البرنامج جميع الملل الى سبب واحد ويقترح حلا مطاقتا لها. أما السبب فهو الابتعاد عن الاسلام، وأما الحل فهو العودة اليه وتطبيقه في كافة مجالات الحياة.

ويعبر مأمون رضوان في القاهرة الجديدة عن ايمان بهذه المبادئ "الدين، الاسلام يلسم لجميع آلامنا... ١" وهو يؤمن ايمانا راسخا كذلك بثلاثة أشياء: الله، والفضيلة وقضية الاسلام. ويعترف بقضية واحدة هي قضية الاسلام عامة والعربية خاصة ٢. ولكنه لم يكن قد اهتمدى الى طريقة محددة لتطبيق ما يؤمن به "وقد تساءل مرة قائلا: ألا يمكن أن نبدأ كفاحنا الحقيقي في جمعية الشبان المسلمين؟ فتظهر الاسلام من غبار الوثنيات، ونرد اليه روحه الفقية، وننشر منها دعوة لا تلبث أن تشمل الشرق العربي جميعا ثم بلاد المسلمين ٣" وهكذا تظهر في آرائه بذور دعوة الاخوان المسلمين وبعض من ملامحها قبل أن تتخذ شكلا معدد المعالم وطريقا واضحة بينة.

١. القاهرة الجديدة، ص ٤٥.

٢. نفسه، ص ١٤.

٣. نفسه، ص ٧٦.

أما عبد المنعم شوكت في السكرية فقد وجد الطريق
في الالتحاق بجماعة الإخوان المسلمين التي كانت قد انتشرت
واتخذت لنفسها مبادئ "معدودة" وآمن بكل قلبه على "حسب
تعبير المرشد - بأنها دعوة سلفية وطريقة سنية وحقيقة صوفية وهيئة سياسية وجماعة
رياضية ورابطة علمية ثقافية وشركة اقتصادية وفكرة اجتماعية"^١. كما قام بنشاط محدود :
أشرف على شعبة الجمالية وكان مستشارا قانونيا لها . وأسهم في تحرير مجلة الإخوان
وألقى المواعظ أحيانا في المساجد الأهلية ، وجعل شقته ناديا لإخوانه ، وكان
"شديد التحمس وموفر الاستعداد كي يضع جميع ما يملك من جهد ومال وعقل في خدمة
الدعوة"^٢

وأهم المبادئ التي آمن بها وجماعته هي أن "تعاليم الاسلام واحكامه
شاملة تنظيم شئون الناس في الدنيا والآخرة . . . فالاسلام عقيدة وعبادة ووطن وجنسية
ودين ودولة وروحانية ومصحف وسيف . . ."^٣ وأن الايمان بالله هو خالق القوة
وباعثها فهو أقوى قوة في العالم وهو فوق كل شيء " . . . فتحت أيدينا نحن المسلمين
ذخيرة مدفونة يجب أن نستخرجها ، يجب أن يبعث الاسلام كما بعث أول مرة ، نحن
مسلمون اسما فيجب أن نكون مسلمين فعلا ، لقد من الله علينا بكتابه فتجاهلناه فحققت
الذلة علينا ، فلنعد الى الكتاب"^٤ . وأن الدعوة "ليست موجهة الى مصر وحدها ،
ولكن الى كافة المسلمين في الأرض ، ولن يتحقق لها النجاح حتى تجمع مصر والأمم
الاسلامية على هذه المبادئ القرآنية . . ."^٥

١ . السكرية ، ص ٣٥١ .

٢ . نفسه ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

٣ . نفسه ، ص ٣٥١ .

٤ . نفسه ، ص ٩٩ .

٥ . نفسه ، ص ٣٥١ .

أما طريقة عملهم فتقوم على البدء بالدعوة والتبشير وتكوين الأنصار المجاهدين ، ثم تـجـي " مرحلة التنفيذ التي لن يـفـقدوا خلالها السلاح حتى يروا القرآن دستورا للمسلمين جميعا . وهم يوطنون النفس على جهاد طويل ، وينتظرون حتى تنتهي الحرب " وعندما يهتف الداعي في الوقت المناسب يهب الاخوان وكل مدرع بقرآنه وسلاحه . . ١

ب - التيار اليساري

يرى رمضان أن أقوى الموامل التي أعاقت نمو الحركة الاشتراكية في مصر في العشرينات وأضعفتها هو " وجود الوفد ، الذي كان حائطا منيعا في وجه أية حركة أخرى مهما كانت مبادئها ، وذلك لشدة التصاق الجماهير به والتفافها حوله " ٢ .
ففي يوم ٨ مايو عام ١٩٢٨ ألقت حكومة النحاس باشا القبض على واحد وعشرين من دعاة الشيوعية في مصر وكانوا جميعا من اليونانيين والاطاليين ثم نفتهم من البلاد . ومنذ ذلك الحين لم تقم محاولة تذكر لاعادة تأسيس الحزب الشيوعي المصري ٣ ، بعد أن انتهت المحاولات السابقة كلها الى الاخفاق ٤ . لأنه ، كما يقول لاكير ، لم يكن لبرنامج الحزب علاقة اطلاقا بحقائق مصر الاجتماعية . ولم يفهم مؤسسوه أساسي النجاح الرئيسيين وهما: أولا ، أن المثقفين هم منبع تأييد الحزب الرئيسي ، فراحوا يبحثون عن قيادات عمالية ، ثانيا ، أن الصراع من أجل التحرر الوطني كان الأهم في تلك المرحلة ، فراحوا يهتمون كليا بالصراع الطبقي ٥ .

١ . نفسه

٢ . رمضان ، تطور الحركة الوطنية . . ص ٥٦٠ .

٣ . يورد رمضان هذه المعلومات ص ٥٥٦ و ٥٥٨ وبعضها نقله عن Marcel Colombe, L'Evolution de L'Egypte (Paris: G. P. Maison Neuve, 1951.)

٤ . راجع تفاصيل هذه المحاولات في رمضان ، ص ٥٠٨ - ٥٦٠ .

٥ . Walter Laqueur, Communism and Nationalism in the Middle East and North Africa (New York: Frederick A. Praeger, 1956), P. 37.

ولم تعد الحركة اليسارية الى النشاط. الا في أثناء الحرب الثانية حين ضعفت شعبية الوفد ، و صار القائلون عليها أكثر تفهما لأوضاع مصر وكان أكثرهم من المصريين وليس من الأجانب كما في السابق . ويلاحظ لا كير^١ أن الجماعات اليسارية الجديدة التي برزت الى الوجود في أواخر سنوات الحرب كانت بداية جديدة لا علاقة لها بأية نشاطات حزبية سابقة لعام ١٩٤٠^٢ . وقد استفادت هذه الجماعات من ظروف الحرب ، والصناخ السياسي المعادي للغاشية ، واقامة العلاقات الدبلوماسية بين مصر والاتحاد السوفياتي في عام ١٩٤٢ ، وانتشار النعمة بين المثقفين على الأوضاع السائدة ، في توسيع عضويتها بحيث ضمت أكثر من ألف عضو عند نهاية الحرب^٣ . أما التكتيك الذي اتبعته هذه الجماعات فيمتد ، كما يقول عيسوي ، على "بنا" نواة صلبة من أهل الفكر والطبقة الوسطى الصغيرة وعمال المصانع ، والتسلل ، في الوقت ذاته ، الى الأحزاب والمنظمات الأخرى ، وأخيرا ، عندما يتم تماسك قاعدتها ، تمتد الى الريف عاملة ، طوال الوقت ، تحت ستار العدالة الاجتماعية ومقاومة الاستعمار^٤ . ويضيف أن أكثر قاداتها نشاطا ونفوذا لا يزالون من المفكرين او من البرجوازية الصغيرة^٥ .

ويمثل علي طه في القاهرة الجديدة بدايات الاتجاه اليساري في مصر قبل أن ينتظم في حزب أو حركة سياسية . فهو يؤمن " بالعلم بدل الغيب ، والمجتمع بدل الجنة ، والاشتراكية بدل المنافسة . . . " ^٦ ويؤمن بالتفسير المادي للحياة الذي

١ . نفسه ، ص ٤١ .

٢ . نفسه ، ص ٤٣ .

٣ . Issawi, Egypt at Mid-Century, P. 270.

٤ .

٥ . القاهرة الجديدة ، ص ٩ .

يقول "بأن الوجود مادة، وأن الحياة والروح تفاعلات مادية معقدة، وأن الشهور صفة ملازمة عديمة الأثر كصوت العجلة الذي يلزم دورانها دون أن يكون له أثر"^١. ويؤمن كذلك بالمجتمع البشري والعلم الانساني، ويعتقد "أن للملحد - كما للمؤمن - مبادئ، ومثلاً اذا شاء وشاءت له ارادته، وأن الخير أعمق أصولاً في الطبيعة البشرية من الدين فهو الذي خلق الدين قديماً وليس الدين الذي أوجده كما كان يتوهم"^٢ كما نراه يتفق مع بعض زملائه على اصدار مجلة أسبوعية للدعوة الى الاصلاح الاجتماعي، تاركا شهادة الماجستير ومعرضاً نفسه لخطر السجن ومعللاً ذلك بقوله "لندع البهستت للباحثين. ولنركز همنا فيما هو أجل، وليكن جهادنا كله لمصر وكيف تحول من أمة عبدة الى أمة من الأحرار"^٣، وحالما بمجتمع "محوشروا نراها في وضعنا الحالي ضرباً من القضاء والقدر...". مجتمع ليس بخال من الشر لانه "لا خير في مجتمع يخلو من نقص يحث على الكمال"^٤. ولكنه لم يهتد الى العمل الحزبي المنظم يعمل بواسطته على تطبيق مبادئه ونشرها بحيث يسهل وضع ما يؤمن به موضع التنفيذ. فنراه لا يزال يؤمن بالحكومة والبرلمان برغم ما أصابهما من فساد. فالبرلمان، في رأيه، "بحيرة تلتقي فيها جداول متباينة المصادر، لا معيد عن أن تمتزج أمواهاها، وينشأ عنها نهج جديد..."^٥. ونلاحظ التصادم الذي كان قائماً بين الفكرة الاسلامية والفكرة اليسارية من المناقشات التي كانت تدور بين علي ومأمون رضوان. ففي حين يؤمن مأمون بالمبادئ التي أنشأها الله، يؤمن علي بالمجتمع ومبادئه المتطورة. ولكنهما كانا متفقين على

١. نفسه، ص ٢٢.

٢. نفسه، ص ٢٣.

٣. نفسه، ص ١٦٦ - ١٦٧.

٤. نفسه، ص ٢١٤.

٥. نفسه، ص ٤٦.

ضرورة المبادئ* للانسان ، وعلى نقد المجتمع الذي عاش فيه ، وان اختلفا في طريقة اصلاحه . وكان محبوب عبد الدائم الممثل للتيار الأقوى في القصة ذاتها يكفر بالمبادئ* جميعها ويرى في عمل علي من أجل مبادئه وما ينطوي عليه ذلك من خطر ضرها من الجنون!.

أما أحمد شوكت في السكرية فيمثل حركة أكثر تطورا وتنظيما . فنراه يحاضر ويحرر المنشورات ويوزعها ، ويعمل في مجلة ٣ الانسان الجديد* اليسارية ، ويشترك في ترجمة الكتب القيمة عن الفلسفة الماركسية للخاصة من المثقفين ، وفي القاء المحاضرات الحماسية على العمال المجاهدين ٢ . ورسالة الانسان الجديد هي تطوير المجتمع على أساس علمي ٣ . ونسمع عدلي كريم صاحب المجلة واستاذ أحمد او أبوه الروحي ، كما يدعوه ، يحث أنصار حركته على تدارس الماركسية ، ويضيف " ولكن تذكروا أنها وان تكن ضرورة تاريخية الا أن هتميتها ليست من نوع هتمية الظواهرات الفلكية ، انها لا توجد الا بارادة البشر وجهادهم ، فواجبنا الأول ليس في أن نتفلسف كثيرا ولكن في أن نملا وحي الطبقة الكادحة بمعنى الدور التاريخي الذي عليها أن تلعبه لانقاذ نفسها والعالم جميعا ٤ . وهكذا فهو يرى أن الطبقة العاملة هي التي ستقوم بالثورة حين يحل* عليها بالايمان الجديد ويسمي الشعب كله كتلة واحدة من الارادة ٥

وترفض الحركة الأديان لأنها تنافي التطور والحرية ،

— بل قل ان بقاء عقيدة اكثر من ألف سنة آية لا على قوتها ، ولكن على حطة بعض بني الانسان ، ذلك ضد معنى الحياة

١ . نفسه ، ص ١٦٨ .

٢ . السكرية ، ص ٣١٣ و ٣٥٢ .

٣ . نفسه ، ص ١٠٩ .

٤ . نفسه ، ص ٣٥٢ .

٥ . نفسه

المتجددة، ما يصلح لي وأنا طفل يجب أن أغيره وأنا رجل،
طالما كان الانسان عبدا للطبيعة والانسان، وهو يقاوم
عبودية الطبيعة بالعلم والاختراع كما يقاوم عبودية الانسان
بالمذاهب التقدمية، ما عدا ذلك فهو (أي الدين) نوع
من الغرامل الضاغطة على عجلة الانسانية الحرة! ١

وهم لا يؤمنون باشتراكية الاسلام التي يدعولها الاخوان، ولا يؤمنون بتعاليمه،

— قد يكون في الاسلام اشتراكية، ولكنها اشتراكية خيالية كالتي
بشر بها توماس مورو ولويس بلان وسان سيمو، انه يبحث عن حل
للظلم الاجتماعي في ضمير الانسان بينما أن الحل موجود في تطور
المجتمع نفسه، انه لا ينظر الى طبقات المجتمع ولكن الى أفراد،
وليس فيه بطبيعة الحال أية فكرة عن الاشتراكية العلمية، وفضلا
عن هذا كله فتعاليم الاسلام تستند الى ميتافيزيقا اسطورية
تلعب فيها الملائكة دورا خطيرا، لا ينبغي أن نبحث عن
حلول لمشكلات حاضرتنا في الماضي البعيد... ٢

ولكنهم لا يشددون على رفض الدين مراعاة لمشاعر العامة وكي لا يستغل أهداؤهم ذلك،
فترى حركتهم بالاحاد والكفر. يقول عدلي كريم:

— ان مهمتنا الأولى أن نحارب روح القناعة والخمول والاستسلام،
أما الدين فلن يتأتى القضاء عليه الا في ظل الحكم الحر، ولن
يتحقق هذا الحكم الا بالانقلاب، وعلى العموم فالفقر أقوى من
الايمان، ومن الحكمة دائما أن تخاطب الناس على قدر عقولهم... ٣

١. نفسه، ص ١٦٠.

٢. نفسه، ص ٣١٠.

٣. نفسه، ص ٣٥٣.

وهم يعتبرون الاخوان أعداءهم ، ولكنهم لا يخشونهم . فعدلي كريم لا ينكر أنهم عقبة خطيرة في طريق حركته ، ولكنه يضيف أنهم ليسوا بالفي الخطورة ،

... ألا ترى أنهم يخاطبون العقول بلفظتنا فيقولون اشتراكية الاسلام ؟ ، فحتى الرجعيون لم يجدوا بدا من استعمال اصطلاحاتنا ، وهم لو سبقونا الى الانقلاب فسوف يحققون بعض مبادئنا ولو تحقيقا جزئيا ، ولكنهم لن يوقفوا حركة الزمن المتقدمة الى هدفها المحتوم ، ثم ان نشر العلم كليل بطردهم كما يطرد النور الخفافيش! ١ .

وموقف الحركة من الوفد يتلخص في أنه "خطوة تطورية خطيرة وطبيعية في آن . . . فهو بلور القومية المصرية ومظهرها من الشوائب والخبائث، الى أنه مدرسة الوطنية والديمقراطية ، ولكن المسألة أن الوطن لا يقنع وما ينبغي له أن يقنع بهذه المدرسة ، لأن الاستقلال ليس بالغاية الأخيرة ولكنه الوسيلة لنيل حقوق الشعب الدستورية والاقتصادية والانسانية" ٢ . كذلك هم يرون أن معنى الوطنية ينبغي أن يتطور حتى يغني في معنى أشمل وأسمى ٣ . وهذه هي النقطة الثانية التي يتجاوزون فيها الوفد .

وتؤيد الحركة روسيا وتتمنى أن تنتصر في الحرب . كما تعادي النازية والفاشية ومؤيديها في مصر مثل جمعية "مصر الفتاة" ٤ ،

... أما مصر الفتاة فحركة فاشستية رجعية مجرمة ، ليست دون الرجعية الدينية خطرا ، وهي ليست الا صدى للعسكرية

١ . نفسه ، ص ٣٥٤ .

٢ . نفسه ، ص ١٠٢ .

٣ . نفسه ، ص ٣٨ .

٤ . قامت هذه الحركة في عام ١٩٣٣ بقيادة الاستاذ أحمد حسين .

الألمانية والاطالية التي تمجد القوة وتقوم على الاستبداد
وتزري بالقيم الانسانية والكرامة البشرية...^١

ولما كانت الحركة قائمة على اكتاف الشقيين الذين يوعون الطبقة العاملة
لتقوم بالثورة. لذلك نراهم يهتمون بالأدب. فيرى عدلي كريم أن "الأدب وسيلة
من وسائل التحرير الكبرى، ولكنه قد يكون وسيلة للرجعية... فمن الأزهر ودار
العلوم خرجت آداب مرضية عملت اجيالاً على تجميد العقل وقتل الروح" وعلى
الأدباء أن ينالوا حظهم من العلم لأنه "أساس الحياة الحديثة" والجاهل بالعلم
ليس من سكان القرن العشرين ولو كان عبقرياً "فعلى كل مثقف أن يضيء نفسه
بنوره وأن يعتنق مبادئه ومناهجه ويتعلى بأسلوبه" بحيث "يحل العلم محل
الكهانة والدين في العالم القديم...^٢ والكتابة الأدبية ينبغي أن تكون وسيلة
محددة الهدف" وأن يكون هدفها الأخير تطوير هذا العالم والصعود بالانسان
في سلم الرقي والتحرر ولا يجوز التلهي والتفلسف عندما يكون المجتمع متألماً،
بل يجب تركيز الاهتمام على ازالة أسباب الألم. كذلك فان اقتصار الأدب على الوصف
والتحليل عمل سلبي بالنسبة للممركة الحقيقية. وفوق ذلك كله لا يكفي أن يكون
الانسان الحر قارئاً او كاتباً لأن المبادئ تتعلق بالارادة قبل كل شيء^٣.

ويشير محفوظ الى أن الحركة لم تكن واسعة الانتشار كحركة الاخوان، وأنها
ضمت أفراداً مختلفي النحل والملل أكثرهم من البيئة الصحفية، وأنها كانت تحارب
ويعتقل أعضاؤها. كما يشير الى تسرب كثير من النفعيين غير المخلصين اليها

١. نفسه، ص ١٠٨.

٢. نفسه، ص ١٠٨ - ١٠٩.

٣. نفسه، ص ٢٤٩ - ٢٥١.

" ومن هؤلاء من يعمل بغية الأجر أو من يعمل للمصلحة الحزبية! ". ويرى عدلي كريم أنه من حق الحركة أن تستفيد منهم وعليها أن تحذرهم في الوقت نفسه^١.

ويمبر أحمد راشد في خان الخليلي عن آراء مشابهة للآراء التي اعتنقها أحمد شوكت مثل الايمان بالاشتراكية، ووجوب اهتمام الأدب والفكر بالشكليات الاجتماعية، والدعوة الى التسلح بالعلم، والثقة بانتصار روسيا الاشتراكية في الحرب، مما يدل على أنه لم يكن بعيدا عن الحركات اليسارية العاطلة في مصر أثناء الحسب العالمية الثانية.

ومرة أخرى اصطدم التيار اليساري مثلاً بأحمد شوكت بالتيار الاسلامي الممثل بمحمد المنعم شوكت بعد أن صار التياران أكثر تنظيماً من ذي قبل في القاهرة الجديدة. ولكنهما اتفقا في الوقوف في وجه الحكم القائم وفي الارادة والعمل ووضوح الهدف، وانتهى مثلهما في السجن معا. ويبدو أن كمال المعجب بالجيل الجديد وايمانه، قرر في نهاية الثلاثية أن يسير في طريق ذلك الجيل الواضحة وأن يخرج من الحيرة والسلبية الى الايمان والعمل. ويلاحظ أن كمال كان أقرب الى آراء أحمد منه الى آراء عبد المنعم وأن أقوال الأول هي التي اجتذبت في النهاية، وجعلته يتخلص من حيرته وشكه. وربما كان حدس الكاتب وأمله أن التيار اليساري بعبائه العامة - علم واشتراكية وحرية - هو الذي سينتصر في مصر. وقد تحقق ذلك بالفعل بعد ثورة ١٩٥٢ التي قام بها ضباط ينتسبون الى الطبقة الوسطى الصغيرة، وسارت في طريق الاشتراكية المعتدلة.

وبعد، فقد تبين لي من استعراض لمشكلات الطبقة الوسطى المصرية السياسية كما عالجها محفوظ في قصصه الواقعية أن الثلاثية عرضت مراحل كفاح هذه الطبقة بين نهاية الحرب العالمية الأولى ونهاية الحرب الثانية. وكان الكفاح في أول هذه المراحل موجهاً ضد الاحتلال البريطاني وجاءت ثورة ١٩١٩ لتتوجها

١. نفسه، ص ٣٥٣ - ٣٥٤

لذلك الكفاح . وفي المرحلة الثانية، صارهم الطبقة الوسطى أن تستولي على السلطة وأن تحتفظ بها في وجه منافسة الأرستقراطية والملك لها وتأمرهم عليها وعلى قيادتها الممثلة بالوفد وبسعد زغلول . وفي المرحلة الثالثة كانت الغلبة قد تمت لعناصر الأرستقراطية والملك ، وعم الفساد وخنقت الحريات، وتوالت الأزمات الاقتصادية. وقد عانت الطبقة الوسطى الصغيرة بنوع خاص في هذه المرحلة وحدث قدرتها على تحسين أحوالها والارتقاء اجتماعيا بل والمحافظة على مستواها وإيجاد لقمة العيش الكريمة. وهذه المرحلة بالذات هي التي يركز عليها محفوظ في سائر قصصه وظروفها القاسية هي التي أنتجت أبطال قصصه الوصوليين الانتهازيين أو اللامبالين الكافرين بكل القيم. أما المرحلة الأخيرة فتتمثل بقيام حركات سياسية جديدة يمينية ويسارية تسمى اليسار تغيير الأوضاع من الأساس وبناء دولة جديدة تحل مشكلات الطبقة الوسطى الصغيرة ومشكلات الشعب المصري عامة.

ويلاحظ أن محفوظ يعتمد الدقة والأمانة والتسلسل التاريخي الحقيقي في إيراد الوقائع التاريخية وأن ما يورده من هذه الوقائع لا يثقل على الناحية الفنية في القصص. كما أنه يعتمد الموضوعية في نقل الحقائق بحيث يكاد ينقل الآراء المتناقضة بالحماسة ذاتها تقريبا .

خاتمة

تتلخص النتائج التي توصلنا اليها في هذه الدراسة بالأمور التالية:

١ . ان اختيار محفوظ للشكل الواقعي في تلك المرحلة من تطوره الفني التي كانت ثمرتها القصص الست موضوع دراستنا (القاهرة الجديدة ، خان الخليلي ، زقاق المدق ، بداية ونهاية ، السراب ، والثلاثية) كان مرتبطا بالتطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي حدثت في مصر في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ، وبتأثير هذه التطورات على الطبقة الوسطى المصرية بالذات التي ينتسب محفوظ اليها .

٢ . ان محفوظ يركز اهتمامه على معالجة مشكلات ثلاث فئات تنتمي الى الطبقة الوسطى الصغيرة والمتوسطة هي : التجار والموظفون والطلبة ، ويمطي هذه الفئات الأدوار الرئيسية في قصصه .

٣ . ان أهم المشكلات الاجتماعية التي عانت هذه الفئات منها تنبع من العوائق القوية التي كانت تقف في وجه تقدمها الاجتماعي على السلم الطبقي ، وتجمل احتفاظها بمركزها على ذلك السلم أمرا صعبا أيضا . وكان الفساد السياسي واستئثار طبقة واحدة بالسلطة ، والأزمات الاقتصادية في أساس هذه المشكلة ، مما يؤكد ارتباط الأنواع الثلاثة من المشكلات التي واجهت الطبقة الوسطى وتداخلها .

٤ . وكانت المشكلات الاجتماعية الأخرى التي عانت الطبقة الوسطى منها والناجمة عن مرورها في فترة انتقالية اهتزت القيم فيها نتيجة التصادم مع الغرب وبعض الموامل الأخرى ، تزيد من حدة المشكلة الأساسية ، وتؤدي الى اغتراب الشقيين عن مجتمعهم .

٥ . كذلك كان الضعف الاقتصادي لهذه الطبقة يزيد من معاناة أبنائها ويدفع بهم الى حدود اليأس والكفر بالقيم وبالمجتمع.

٦ . كما ان المشكلات السياسية الناتجة عن خيبة الأمل الحادة التي أصابت هذه الطبقة بعد اخفاق ثورة ١٩١٩ ، وضعف الوفد وتسرب الفساد اليه ، واستمرار الاحتلال المقنع ، واستبعاد الارستقراطية والملك ، كانت مصدرا آخر من مصادر معاناة أبنائها .

٧ . كانت العوامل السابقة مجتمعة تؤدي بأبطال محفوظ الى اتباع طرق فردية ملتوية لتخطي تلك المشكلات . ولكن فئة من شخصيات تلك القصص بدأت تفيق من الصدمة ، وتتخذ لنفسها خطا ثوريا ، وتبحث عن حل جذري لمشكلات المجتمع .

٨ . ان معالجة محفوظ لهذه المشكلات اتسمت بالموضوعية والنضج الفني والعمق . ولعل هذا ما يميزه عن سائر كتاب القصة العرب الذين أتوا قبله وما يعطي قصصه سمة انسانية برغم معالجة مشكلات محلية . ويمكن اعتبار هذه القصص مصدرا هاما من مصادر التاريخ الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لمصر الحديثة .

فهرس المحتويات

مقدمة	١
مدخل - نجيب محفوظ وعلاقته بالطبقة الوسطى وبقضايا عصره	٨
الفصل الأول - تركيب الطبقة الوسطى المصرية وانعكاسه في قصص محفوظ	١٧
الفصل الثاني - المشكلات الاجتماعية	٤٤
قابلية التحرك الاجتماعي - العوائق والحلول	
موقف الطبقة الوسطى من الطبقات الاجتماعية الأخرى	
العائلة البرجوازية	
دور المرأة البرجوازية في قصص محفوظ	
الطبقة الوسطى والدين	
المجتمع الانتقالي والقيم المتغيرة - العوامل والنتائج	
الفرد والمجتمع - الاغتراب الاجتماعي في قصص محفوظ	
الفصل الثالث - المشكلات الاقتصادية	٨٤
× مشكلات صغار الموظفين	
مشكلات الطلبة المتخرجين	
× الازمات والظروف الخاصة	
الفصل الرابع - المشكلات السياسية	١٠١
الطبقة الوسطى والاحتلال - ثورة ١٩١٩	
الطبقة الوسطى والارستقراطية - الصراع على السلطة	
× الطبقة الوسطى في مواجهة الفساد السياسي والاستبداد	
× التيارات السياسية الجديدة	
خاتمة	١٤٩

المصادر

- ١ . محفوظ، نجيب. القاهرة الجديدة. القاهرة: دار مصر للطباعة، لات.
- ٢ . محفوظ، نجيب. خان الخليلي. الطبعة السادسة. القاهرة: دار مصر للطباعة، لات.
- ٣ . محفوظ، نجيب. زقاق المدق. القاهرة: دار مصر للطباعة، لات.
- ٤ . محفوظ، نجيب. بداية ونهاية. القاهرة: دار مصر للطباعة، لات.
- ٥ . محفوظ، نجيب. السراب. الطبعة الرابعة. القاهرة: دار مصر للطباعة،
١٩٦٤.
- ٦ . محفوظ، نجيب. بين القصرين. القاهرة: دار مصر للطباعة، لات.
- ٧ . محفوظ، نجيب. قصر الشوق. القاهرة: دار مصر للطباعة، لات.
- ٨ . محفوظ، نجيب. السكرية. القاهرة: دار مصر للطباعة، لات.

المراجع العربية

أ - الكتب

١. بدر، عبد المحسن طه ، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (١٨٧٠-١٩٣٨) . القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣ .
٢. البراهي ، راشد . حقيقة الانقلاب الأخير في مصر . القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٢ .
٣. الرافعي ، عبد الرحمن . ثورة سنة ١٩١٩ . الجزء الأول . القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٦ .
٤. رمضان ، عبد المظيم . تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٣٦ . القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٦٨ .
٥. شكلي ، غالي . أزمة الجنس في القصة العربية . بيروت: دار الآداب، ١٩٦٢ .
٦. شكلي ، غالي . المنتمي - دراسة في أدب نجيب محفوظ . القاهرة: مكتبة الزناني ، ١٩٦٤ .
٧. النقاش، رجاء . أدباء معاصرون . القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨ .

ب - المجلات والجرائد

٨. أنيس، محمد . "ثورة ١٩١٩ تحالف الطبقات بقيادة الرأسمالية الوطنية" . الكتاب، أغسطس، ١٩٦٥ .
٩. انيس، محمد . "مصر من الاقطاع الى الرأسمالية ١٧٩٨ - ١٨٨٢" ، الكتاب، يوليو، ١٩٦٥ .
١٠. بركات، حلیم . "في علاقة القصة بالمجتمع" . آفاق، غريف ١٩٥٨ .
١١. بركات، حلیم . "الاغتراب والثورة في الحياة العربية" . مواقف، تموز - آب، ١٩٦٩ .
١٢. الجويلي ، كمال . "الادب والفلسفة" . المساء، ٢١ تشرين اول، ١٩٦٢ .
١٣. دواره، فؤاد ، "رحلة الخمسين مع القراءة والكتابة" . الكتاب، يناير، ١٩٦٣ .
١٤. شكلي ، غالي . "نجيب محفوظ يتحدث عن فنه الروائي" . حوار، مارس - ابريل، ١٩٦٣ .

- ١٥ . صالح ، احمد عباس . " رد على نجيب محفوظ "، الكتاب، مارس، ١٩٦٦ .
- ١٦ . صدقي ، جاذبية ، " لماذا لم يتزوج " . صباح الخير، يناير ، ١٩٥٨ .
- ١٧ . عبد الحي ، عبد التواب . " عصور حياتي " . الاذاعة، ٢١ كانون اول ، ١٩٥٧ .
- ١٨ . عفيفي ، محمد . " نجيب محفوظ رجل الساعة " . الهلال، فبراير ، ١٩٧٠ .
- ١٩ . كريم ، سامح . " نجيب محفوظ وثورة ١٩١٩ " ، الكتاب، ابريل ، ١٩٦٩ .
- ٢٠ . محفوظ ، نجيب . " ملاحظات على المشكلة الميتافيزيقية " ، الكتاب، مارس، ١٩٦٦ .
- ٢١ . موسى ، فاطمة . " نجيب محفوظ وتطور الرواية العربية " ، الكتاب، يوليو، ١٩٦٨ .
- ٢٢ . الورداني ، ابراهيم . " رحلة في رأس نجيب محفوظ " . الجمهورية، ١٩ ابريل ، ١٩٦٠ .
- ٢٣ . ————— . " الواقعية تطوّر طبيعي للأدب " . الاثنين، ١٩ كانون ثاني ، ١٩٥٩ .

المراجع الأجنبية

1. Ahmed, Jamal Mohammad. The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism. London: Oxford University Press, 1960.
2. Baer, Gabriel. "Social Change in Egypt: 1800-1914". Political and Social Change in Modern Egypt. Edited by P.M. Holt, London: Oxford University Press, 1968.
3. Barber, Elinor. The Bourgeoisie in 18th C. France. Princeton: Princeton University Press, 1955.
4. Berger, Morroe. Bureaucracy and Society in Modern Egypt. Princeton: Princeton University Press, 1957.
5. Berger, Morroe. "The Middle Class in the Arab World". The Middle East in Transition. Edited by Walter Laqueur. London: Routledge, 1958.
6. Bill, Valentine. The Forgotten Class - The Russian Bourgeoisie from the Earliest Beginnings to 1900. New York: Frederick A. Praeger Publishers, 1959.
7. Centers, Richard. The Psychology of Social Classes-A Study of Class Consciousness. Princeton: Princeton University Press, 1949.
8. Grayson, Henry. The Crisis of the Middle Class. New York: Rinehart and Comp. Incorporation, 1955.
9. Gretton, R. H. The English Middle Class. London: G. Bell and Sons LTD, 1917.
10. Halpern, Manfred. The Politics of Social Change in the Middle East and North Africa. Princeton: Princeton University Press, 1963.
11. Harris, Christina Phelps. Nationalism and Revolution in Egypt-The Role of the Muslim Brotherhood. Stanford: Mouton and Co., 1964.
12. House, Humphry. The Dickens World. 2nd Ed. London: Oxford University Press, 1960.
13. Issawi, Charles. Egypt at Mid-Century-An Economic Survey. London: Oxford University Press, 1954.
14. Issawi, Charles. Egypt: An Economic and Social Analysis. London: Oxford University Press, 1947.